فتحية القلاّ

الانـتـظار

وقصص أخرى

الإهداء..

إلى زوجي.. الرجل الرائع الذي كان لي في رحلة العمر الطويلة محارة صلبة تحدت الزمن إلى درجة الإعجاز.

احتواني داخل عقله، فعشت ألقاً يتجدد بعزيمته القوية، كان يشعل بوجوده الحيّ وجودي كلما ضعفت أمام عواصف الزمان، من ألم المرض أو وجع الأيام .

ف.ق

آسف لست مرآتك

على قلة حوارنا ونقاشنا، استطعت أخيراً أن أفوز بفرصة للكلام معها، حرصت على أن يطول وينتهي بنتيجة مرضية توصلنا لإصلاح ما بيننا وإنقاذ حياتنا المفتتة وبيتنا الذي كان على وشك الانهيار.

ذلك اليوم، كان هدوء أعصابها واعتدال مزاجها عاملين أساسين في إثارة حماستي لانتهاز تلك الفرصة النادرة، والخوض في حديث رأيت من الحكمة أن أوجهه بسرعة نحو الهدف منه، قدرت، أنني قد لا أجد وقتاً مناسباً مثل هذا للتحدث بهدوء وروية في أمور بدأت تشكل خطراً يهدد أسرتنا الصغيرة، وقد تقضي على بقايا الحب الكبير الذي كان أساسها، آسف إذ لن أستطيع أن أضيف الشطر الآخر والأهم لدعامة أي حياة مشتركة بين اثنين، أقصد به التفاهم والتوافق. الحقيقة أن الحب وحده هو الذي جمعنا، حب كبير جارف، جعلني أظن أنه كاف للارتباط دون تقدير للاختلاف من أي نوع كان.

بدأت الحديث بشكل مرح وعشوائي دون التركيز على شيء معين، أردت ألا أشعرها بأنني أنتهز هذه الجلسة وهذا الهدوء، لم أنس طبعاً الثناء على ذوقها ورقة جمالها، ولا التأكيد على حظي الكبير الذي أوقعني بحبها. لقد بشرت البداية بخير، رأيت علامات الرضا على وجهها تفاءلت وواصلت. كنت آمل أن تستمع وتنتبه إلى الخطر الزاحف على بيتنا، لكن للأسف لم أنل ما تمنيت وأملت، بل تطور الأمر، وتنبهت أنا نفسي إلى أن مشاكلنا الصغيرة والمعلقة التي اعتقدت زمناً طويلاً قابلة للحل، كانت أساسية وأزلية وعمرها أجيال وأجيال، لن ينفع معها أي علاج.

لم أكن ساذجاً، لكنه كان من الصعب عليّ أن أصدق أن مشاكل بسيطة كالتي نعاني منها، ومعظمها يتعلق أصلاً بنظرتها السطحية للأمور مهما عظمت يمكن لها أن تهدم بيتاً، اعتقدت طويلاً بأنه لن يلزمني أكثر من أن تتاح لي فرصة لنقاش حر فأوضح لها ما غلق عليها وبعدها ستنتهي كل مشاكلنا. خاب ظني، فالحديث الذي بدأ هادئاً جرنا إلى حوار ساخن ثم هازئ ثم عاصف أطاح بالبقية الباقية من قدرة كل منا على الاحتمال.

ما حصل أنني أخذت بدفع حديثي دفعاً طبيعياً حول فضائل الإنسان الطبيعية والمكتسبة، أسهبت في وصف من يملكون موهبة فيوجهون عنايتهم إليها متجاهلين جوانب حياتهم الأخرى، فيفقدون التوازن المطلوب في حياتهم. إما أن يفقدوا ميزة رائعة لم يلتفتوا إليها في ذروة

حماستهم لأخرى التي ربما تكون أقل أهمية لهم..أو يبهت مع الاعتياد رونق الميزة التي كانت همهم الأوحد وربما..

قاطعتني واهتمام واضح على محيّا وجهها الجميل:

- لم أفهم ! فسر لي كيف يكون ذلك؟

فرحت، فقد أثار الحديث اهتمامها. في تلك اللحظة كانت مشغولة بتشذيب أظافرها بمتعة بادية على وجهها شأنها حين يستغرقها عمل يخصها كالاعتناء بشعرها أو هندامها أو ربما قدميها، قلت:

– لكل إنسان خلالٌ وفضائل خصّه الله بها دون الكثير من المخلوقات، قد تكون مخلوقة معه أو ربما اكتسبها، فيتباهى بها وكأنها وسامه الوحيد، لا ينتبه إلى أنها بهتت مع الأيام، وفقدت مع الاعتياد بريقها فيحاول استدراك الأمر.

قالت بسرعة:

- مثلاً .؟.

– الأمثلة كثيرة، ولكن دعينا نبدأ بالمألوف منها، الغني الذي يفرح بما عنده من مال، يشغل كل حواسه من أجل جمع المزيد من المال، ينسى نفسه، يلغي إنسانيته، فيبخس المشاعر الإنسانية والقدرات الفكرية حقها. كذلك من أوتي من العلم حظاً وافراً، تتيه نفسه إعجاباً بتلك الميزة، فيتعالى على حوله بشكل مقيت، يتعامل بفوقية مطلقة مع كل من لم يحظ مثله بقسط من التعليم.

سكتُ برهة وأنا أعد نفسي لاقتحام المجال المحظور وأقول الكلمة التي أود توصيلها في تلك الجلسة الفريدة، خاصة وأنها ما زالت –على غير عادتها– رحبة الصدر غير متبرمة بالحديث على الرغم من بعده عن مدار اهتماماتها. كل ملامح وجهها كانت تؤكد أنها تتعامل مع موضوع الجلسة وكأنه لا يعنيها، مع أنها كثيراً ما تفسر أي حديث يدور بيننا أو مع الآخرين وكأنه اعتداء علني ومباشر على شخصها، أغراني هدوئها وانتباهها، تابعت:

– الجمال مثلاً هبة ونعمة ولكن! إن أصبح الشغل الشاغل للإنسان ..

قاطعتني بصوت يحمل انفعالاً يزحف بتحفز للدفاع :

– الإحساس بالجمال ليس عيباً على ما أعتقد.

تفاءلت ..وتجاهلت ارتعاشة الشفتين فما زالت على جلستها المريحة، تداعب شعرها مرة ووجهها مرة أخرى ثم تعود لتتأمل أظافرها باهتمام بالغ، تلقي بتلك القطعة المعدنية التي كانت بيدها، لتلتقط مبرداً خشبياً من علبة أمامها، وتبدأ في تشذيبها بعناية أشد وبعصبية واضحة دون أن يبدو عليها أنها توجه عناية خاصة لما أقوله، مع ذلك تابعت ببساطة:

– حقاً ليس عيباً، بل على العكس، وكما أوضحت لك منذ قليل إن الجمال نعمة، لكن أن يصبح هو وحده محور الحياة كلها فشئ لا يحتمل .

رفعت نحوي عينين ساحرتين وقالت بتحد:

– حسن الصورة والمظهر الخارجي بشكل عام حيوي وأساسي في حياتنا، ومن يعتقد غير ذلك مخطئ .

– لكن أن نوجه له كل اهتمامنا، أعني أن نبذل الجهد والمال والوقت من أجل ذلك فالأمر خطير.

أجابت بخيبة أمل:

– لم لا يفرح المرء بفترة قصيرة في حياته قبل فواتها فترة الشباب والجمال؟ خاصة إذا ما صادف نقلة مهمة في حياته، أصبح قادراً فيها على بذل الجهد والمال والوقت.

رأيتها تتململ فقلت بلهجة لينة متوددة:

– ذلك صحيح نوعاً ما، شرط ألا يسرقنا، فنتوه عن مسئولياتنا، ونصب كل مشاعرنا في هذا الاتجاه دون مناحي الحياة الأخرى، أعتقد أن ذلك هو المستحيل بعينه، أليس كذلك؟

انقض صوتها عليّ كالصاعقة:

– بالنسبة لي– إن كنت تعنيني– لا أرى ناحية من مناحي الحياة أهم عندي من نفسي والتمتع بشبابي وجمالي.

قلت متلطفاً علّني أغريها بالعودة إلى هدوئها السابق:

– لا أظنني من الأنانية بحيث أطلب منك أن تعطي كل اهتمامك لنا، أعني لبيتك، لزوجك وطفليك، مع اعتقادي بأن الحب الذي بيننا يستحق منك مثل هذا وأكثر. بصراحة، أنت تبخلين علينا بأبسط

المشاعر الإنسانية الطبيعية، أخشى أن يكون الحب قد تسرب خارج نفوسنا وبيتنا لقلة الاهتمام والرعاية.

تدهور الموقف، قالت بعد صمت ونبرات صوتها تزداد برودة مع كل كلمة:

– أفهمك جيداً.. لا تجعل الطفلين حجتك الدائمة لتخفي حقيقتك..لقد تناقشنا حول الموضوع مراراً، وانتهينا منه، ولم أغير رأي. أنت الذي يتوجب عليه تفهم الأمور وقبول ما هو واقع وحقيقي، أنت تخلط بين الزوجة والأم. ما تريده مني يؤكد حاجتك الماسة في أعماق شعورك إلى الأم، ولا أعرف سبب ذلك، لعلك تعاني طفولة متأخرة لا أستطيع اعتبار نفسي مسئولة عنها، ولست على استعداد لأعانيها معك، أمك وحدها المسئولة عنها وليس أنا.

تحشرج صوتها في الجملة الأخيرة وانخفض، سمعته همساً مسموماً، لهاثاً كالفحيح أفزعني. سمعتها تقول بلؤم:

– لعلك تريدني أن أعيش حياتي كما عاشت أمك حياتها، أبداً هذا لن يكون، أنا من جيل آخر.

ضبطت انفعالي رغم جرح مشاعري بتلك الطريقة الفظة، هممت بترك الحجرة ولكن صوتها أوقفني، ظننت أنها ستصلح ما أفسدت، وكنت على أتم الاستعداد لمواصلة الحديث، فإذا بها تهدر بغضب قضى على كل أمل:

– حتى هذه اللحظة لم أفهم ما هو المطلوب مني، دع عنك هذه المحاضرة التي تتحفني بها بين حين وآخر، إن كنت تريدني أن أضيع عمري وشبابي وجمالي في خدمة بيتك وأولادك فأنت واهم.

قفزت أمامي ويدها تهتز أمام وجهي كأنها على وشك أن تصفعني صارخة:

– هكذا أنا منذ عرفتني، وأحببتني، وتزوجتني، ولن أتغير. ما الجديد في الأمر ها.. أخبرني.؟ إنها تعاليم أمك فكثيراً ما حرضتك وهي التي..

لم أعد أسمع.. ضوضاء وأصوات تأتيني من جهات مختلفة، صوتها المتقطع يصلني من بعيد، غمغمة مبهمة تأتي إليّ من آخر الدنيا، أحسست بعمق الهوة التي تفصل بيننا، محال تجاهلها، هوة ستبتلعنا جميعاً إن لم أتدارك الأمر. أجبت بأسى جارح:

– نعم..هذا صحيح لسوء الحظ.

اندفعت خارجة من الباب مثل قذيفة انقضت على رأسي فهشمته، بقيت زمناً جامداً في مكاني مصعوقاً غير قادر على الحراك، أحاسيسي تتفجر، أفكاري تجنح نحو اتجاه آخر لم أصله حتى في أشد الأيام حلكة معها. الأمر واضح منذ البداية، لكنني تغاضيت عنه متعمداً لشدة افتتاني بها، صور كثيرة تداعت، مواقف كثيرة مشابهة تمر بخاطري مثل شريط سينمائي، كلها تصور مدى فقدانها لإنسانيتها.

كم مرة ضبطتها خجلة من تفجر عواطفها تجاهي أو تجاه الصغيرين رغماً عنها، كانت تبذل جهداً خارقاً لتخفي انفعالاتها وتتكر أحاسيسها، دائماً تؤكد بسعادة متناهية وفي كل مناسبة أنها بلا قلب وبلا مشاعر حتى مع ولديها. كنت أرى فأكذب نفسي، أعزو ذلك كله إلى الإهمال، والحقيقة أن الأمر أخطر من ذلك بكثير.

في تلك الفترات المؤلمة وكنت مولعاً بها، بدأت أخترع لها مبررات لكل ما تفعل، أقنعت نفسي أن شيئاً غير طبيعي لا أعرفه مر في حياتها وتركها تعاني هذا الجدب العاطفي، في أعماقها ألم كبير أدى إلى اختلاط مشاعرها، أو شرخ عميق يجعلها تعيش وكأنها تتصارع بين ما تريده وما تستطيع فعله، عزوت الأمر من شدة حرصي على ألا أفقدها إلى أنه خارج إرادتها، تحاول إثبات أنها أقوى من كل شئ ولكن لماذا ؟

لم أتمكن طبعاً من معرفة السبب بعد الزواج، فقد أغلقت نفسها دون كل محاولاتي. صرت أعالج الأمور على طريقتي، فتارة أغدق عليها الحب لعله يتغلب على هذا العشق لذاتها ولشكلها ولأشيائها، وتارة أخرى أشغلها بأمور مهمة، أو أساعدها في مهماتها المنزلية لتعرف أن ذلك مدعاة للفخر وليس سبة، لكن بلا فائدة. حاولت قبول الأمر كواقع لا مفر منه وعشت .. لكن طال العذاب، ونفد الصبر. عرفت الأرق، وبدأت قناديل الحب تنطفئ، وينضب الكلام، ويضيق الصدر، ألمح وأصرح وأرجو وأطلب وهي في واد آخر مستهجنة مستغربة ما أتكلم

عنـه، كـل شـئ تـراه علـى أحسـن حـال، أصـبح البيـت مـأوى بـارداً لخـزن أجساد ساكنيه.

كم اتهمت قلبـي بأنـه تغيـر عنـدما أصـبح قلـب زوج بـدلاً مـن قلـب الحبيب، كان إذ ذاك طائراً طروباً والآن أصبح ساكناً مكسوراً. عيناي لم تعودا تريان كل شئ جميل بقدر ما باتتا تتصيدان الهفوات. كم حاولت إحياء حب تأجج ذات يوم عندما كان يطربني اسمها، ولا يمل القلم من رسمه على كل أوراقي ومجلاتي وكتبي، حتى على علب دخاني، وحرفها الأول المحبـب الـذي كـان ومـا يـزال معلقـاً بـين أصـابعي فـي سلسـلة مفاتيحي وبأزرار القميص.

استمر تداعي الأفكار في رأسي بصدق دون تضليل لنفسي. عدت إلى الموقف الحالي وتعجبت كيف أصبحت قادرة على تحريك هذا الكم من الحزن الممزوج برفض صامت كرهت معه نفسي، ما قالته ألهب رأسي وشعوري بشكل حانق مخيف، ودهشت، لقد تغيرت، ولكني عدت وتساءلت: كم عذبتني حتى وصلت إلى هذه الدرجة من اليأس؟ تراءى لي وجهها ينضح بسؤالها الأزلي ببرودة منقطعة النظير، "علام الخلاف، لا أرى لـه سبباً" ثم تقلب شفتيها مستخفة، وفي عينيها تتوقد صرخة مكبوتة بأنني جاحد لنعمة وجودها في حياتي.

ليتها فهمت شعوراً واحداً أو أحست به على حقيقته، ليتها ثارت مرة واحدة وطلبت إيضاحاً وأعطت فرصة للإجابة، لكان زحف الخراب توقف، وتداركنا الأيام قبل أن تدفع بكل منا إلى طريق لا أثر للآخر

فيه. الفراق كحل وحيد هو الذي كان يشاركنا معيشتنا سواء في لحظات الصفاء أو طوال مدة الخلاف، لكن تشبثي بأمل بأن الإصلاح آت جعلني احتمل، وها هو اليوم يصرخ في وجهي بأنه سيبقى حلماً وسراباً ولن يجئ.

كثيراً ما تجاوزت جفاءها المفروض عليّ، وانتهز فرصة رضا تعيشه فأقبل عليها بكل حب ورغبة وتسامح، وكثيراً ما كنت أحس بتجاوب يضاهي شعوري ورغبتي فأعود من جديد أوقع اللوم على نفسي من سوء ظني بها وأتناسى، هل كانت تلعب بي؟ أهي شريرة إلى هذا الحد دون أن أدري؟

ساقتني خواطري إلى حدث مرعب لفت انتباهي في حينه. ذات يوم دخلت بهدوء إلى غرفة الصغيرين حيث قادني صوت لهوها معهما، وقفت غير بعيد أتأملها رمقها بكل حب وهي غارقة في مداعبة الصغير، كان منظراً خلاباً، هو يعانقها وهي تأخذه بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها بفيض حنان، فجأة رأتني فصرخت:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

قلت بابتهاج:

- لقد راقني المنظر، أنت أم حقيقية، أم رائعة الجمال والحنان وزوجة فاتنة.

اقتربت أكثر حاولت احتضانها وجدتها توسع لي مكاناً بالقرب من الصغير، ثم تمد ذراعها لتحيط عنقي، قبل أن أستشعر دفء اللحظة

الخالدة، أبعدتني وقذفت بالطفل بعيداً عنها، وقفت لاهثة تتلفت حولها كأنها تبحث عن شئ تاه عنها، ثم تركتنا وغادرت الغرفة، تركتني وأنا في غاية الحزن.

لحقت بها فوجدتها تبكي، وما أن رأتني حتى أخذت تضحك بعصبية ضحكة مفتعلة، مدعية أنها لا تطيق العواطف وأنها أقوى من البكاء ومن الحزن و..و..ولم أعد أسمعها، طغى علي شعور جارف بالشفقة عليها، لعلها إنسانة غير سوية، قررت بيني وبين نفسي استشارة الطبيب.

لم تفدنا زيارة الطبيب شيئاً، لم تتفهم الغاية من المحاولة، ولم تتعاون معه، ولن أنسى ما حصل بعدها، اتهمتني بأنني قد أخذتها عنوة لعيادة الطبيب لأشهّر بها وأصمها بالجنون، ازدادت تعنتاً، أغلقت في وجهي كل السبل للوصول إليها، واستمر الانهيار، بت أبحث عن إنسانيتها، عن روحها، عن رقتها، عن مشاركة وجدان، وأصدم بالإجحاف والأنانية المفرطة إلى درجة التسلط.

أحسدها أحياناً على هذا الكم من البرودة، وأعود لأحتقر طريقتها في العيش. كيف تهدر كل طاقاتها على التافه من الأمور؟ وصل الأمر بي إلى اليأس، لا فائدة ترجى منها، ولا فائدة من استمراري في مطاردة مشاعرها وعواطفها محاولاً توجيهها الوجهة السليمة. لقد وصلنا إلى الطريق المسدود، ردود فعلها تزداد عنفاً، تزداد قسوة وتسلطاً إثر كل مرة

أقوم بها بمحاولة ما، كنت أعرف أنها بدورها تحاول الاستجابة بجدية فتفشل.

اليوم هو الحد الفاصل بيننا، هذه المرة هي المرة الأخيرة، لن أسمح بأن تتكرر أبداً، هذا قراري الأخير اتخذه بكامل وعيي وإدراكي، وأنا أرى الطفلين متصلبين في زاوية الغرفة، تغمر الدموع العيون والخدود المتضرجة بالحمرة من الخوف والحزن، لا بد أن أنقذهما إذا لم يخطر على بالي إنقاذ نفسي، اندفعت بكل كبت السنوات الماضية، بكل المرارة التي لم أحصد غيرها منذ عرفتها وأحببتها وتزوجتها.

جهزت أشياء الصغيرين وبعض حاجاتي وخرجت من الغرفة حاملاً حقيبة الأمتعة، وجدتها جالسة في مكانها تقلب مجلات الموضة العديدة الملقاة على المنضدة أمامها، لم ترفع وجهها ولم تطرف لها عين، كنت ألحظ شحوب لونها ورعشة يديها، واختلاج شفتها كأنها تغالب البكاء، قلت قبل أن أغادرها :

– لن يشاركك بعد اليوم أي منا حياتك التي تعشقينها، ولن نحتاج بعد اليوم لجزء صغير من وقتك، امنحيه لنفسك وزينتك وعطورك، عيشي لها، عيشي بها، فأنا جدّ آسف، لا أستطع أن أبقى مجرد مرآة لك أو متعبداً لجمال بارد لا مشاعر فيه، تنقصه الروح، تنقصه الحياة.

بقيت على جمودها وهدوئها المفتعل، غيرت جلستها ودقت الأرض بقدميها، نظرت حولها بلهفة كأنها تبحث عن حياتها، ثم قامت وخطت نحوي خطوتين ثم عادت إلى جلستها الأولى وتناولت مجلاتها التي تثير

إعجابها كثيراً ، وتعرف مدى غيظي من ممارسة تلك التفاهة، رفعت ساقاً فوق ساق، أخذت تهزها بلا مبالاة، كتعليق منها على قرار مغادرة البيت مع طفليّ الصغيرين.

أحست بنظراتي نحوها تتأجج غضباً، تعمدت أن تتعامى عنها، لا أعرف كيف استطاعت أن تكبت كل ذلك الغضب والرعب الذي يسكنها وألمحه في رعشة يديها ورموش عينها المسبلة، بتردد رفعت نظراتها الباردة أو المحايدة نحوي متحدية أن أستطيع البعد عنها، وتنفيذ ما صممت عليه. رفعت رأسها بتكبر، حولت نظرها إلى زجاج باب الشرفة بجانبها، أعادت تسوية خصلات شعرها، حين وصلت قرب الباب وفتحته سمعت ضحكتها ساخرة شديدة المرارة تنطلق عالياً، وصوتها ينطلق كأنه بركان ثار بعد خمود طويل طويل، بكلمات تحمل مع كل حرف غلظة تقوض أعتى الجبال:

– ستعود نادماً..لكن حذار أن تتأخر، فقد لا تجدني.

– لن أعود.

ولم أعد..

إنسان برسم ..البيع

وقف أمام النافذة محدقاً في الفراغ خارج غرفته، تستشف عيناه عبر زجاجها كنه هذا الكون الغريب الذي لم يستطع التكيف معه، عاشه صراعاً بلا مهادنة. بحث في السماء وفي الأرض، بين الأشجار الباسقة وبين النباتات الصغيرة المستضعفة، عن نذر الشؤم الذي يحس به، كأن الكون مقبل على النهاية على ساعة الصفر.

ثقل رابض على صدره منذ ليلة أمس، ولاحقه حتى الصباح، بل ازداد ثقلاً ووصل أقصى مداه. شعور يخامره يكاد يبلغ حد اليقين أن هذا اليوم لن يمر مثل أي يوم عادي. الجو ماطر عاصف ومكفهر، لم يتحسن المناخ طوال ثلاثة أيام على التوالي، كأن الدنيا تحت رحمة غضب الطبيعة التي رفضت التوقف وإجابة دعاء الخائفين، تذكر ما كان يقال أمامه وهو طفل صغير حين تمطر السماء بهذا الشكل المستمر المصحوب بالبرق والرعد، من أن شيئاً مثل هذا بمثابة رسالة السماء تنذر بها أهل الأرض جميعاً.

عاد إلى مكانه المعتاد، تشتد هواجس نفسه عنفاً، فيحاول تهدئتها باختلاق أسباب لتوتره، يعددها ويفندها. أول خاطر ورد على باله هو هذا الاكتئاب اللعين الذي كثيراً ما يعاوده دون سبب واضح، لا لم يقتنع، مط شفتيه بنزق ونفث نفساً متقطعاً من أنفه، تذكر أنفه، هو أيضاً يعذبه أيام البرد الشديد، حتى التدفئة الداخلية تزيد من جفافه. لعل الجو التعس الضبابي الغائم هو السبب، السماء داكنة كأنها ما زالت واقعة في قبضة عتمة الليل ، وهذا عادة يجعله يشعر بالانقباض.

اكتنفته حيرة مريرة، أثارت في نفسه رغبة شديدة في البكاء فابتلعها، لم لا يبكي؟ يشعر فعلاً برغبة شديدة في البكاء، سيترك لدموعه العنان. لم ينفذ الفكرة، تشاغل عنها بأن وضع يده على جنبه الأيمن وتحسس مكان الألم الذي يعانيه منذ زمن طويل وضغط على الموضع بشدة، شعر بالمزيد من الألم، إنه الألم اللذيذ. لقد زار طبيبه مؤخراً، كانت إحدى زياراته الدورية، وكالعادة لم يخفه الطبيب ولكنه لم يطمئنه أيضاً.

أمسك برأس الأفعى التي تتحرك في كل اتجاه بداخله فتثير بعضه على بعضه الآخر، إنه الروتين اللعين الذي يحكم دقائق يومه ابتداء من عبق فنجان قهوته الصباحي وطريقة زوجته في التسلل بهدوء، بخفة قطة مذعورة، لتضعه بجانبه دون أن يشعر بها، حتى عودته للفراش بشكل آلي كل ليلة، يا إلهي..كل ليلة.

جلس على حافة السرير، لم تنفرج أزمته، ولم تنقض حالة الترقب والقلق، يعرف أكثر من غيره أن بحثه عن العوامل التي تؤدي به إلى هذا الشعور الرهيب دون التوصل إلى نتيجة يزيد من حالة القهر عنده، ولكن ما باليد حيلة. عادت نظراته إلى النافذة، الشجر يتطوح يميناً ويساراً، والمطر يرشق زجاج النوافذ بعنف، هل ستقوم قيامة الدنيا؟ كأنها ذبيحة تتخبط من حلاوة الروح، تنزف لحظاتها الأخيرة بسرعة مذهلة، فتستجيب الأيام، تفر فراراً عشوائياً، لكن دقائق أيامه طويلة تمر به وكأنها أعوام، يزداد فزعه وخوفه مع كل ثانية من ثوانيها.

زحف حتى نهاية السرير وأسند ظهره إلى حافته، قهوته بانتظاره، جاءت بالطريقة السحرية ذاتها، ارتشف منها بطريقة ميكانيكية بعد أن ملأت أنفه رائحتها. أدار مؤشر الراديو بسرعة هروباً من أصوات المذيعين التي تنفث السموم بطريقة باردة، يتخيل المذيع نفسه وقد أصبح قطعة معدنية باردة تماماً مثل الميكرفون الذي أمامه، يبشر الملأ بازدياد الشرور كل لحظة، ينعي كل شيء في الإنسان والحياة، استقر المؤشر أخيراً على موسيقى صاخبة، لبث برهة ينتظر أن تأتيه المعجزة وينعم ببعض الهدوء.

تأهب لمغادرة البيت إلى عمله بعد أن أخذ عدته لملاقاة هذا الجو الماطر العاصف، خطا بضع خطوات نحو باب الخروج، ثم توقف في منتصف الطريق، عاوده شعوره الملّح بإنه يوم غير عادي، نظر إلى ساعة الحائط إنها الثامنة والنصف موعد ذهابه إلى العمل، لماذا يكبل

نفسه بهذه الالتزامات التي أصبح التقيد بها حماقة؟ عليه تغيير عاداته بعد أن طال التغيير كل شيء.

التغيير.. التغيير هو سبب البلاء، صعب أن تجد نفسك تحت طائلة التعذيب النفسي لأنك لم تتخل عن إنسانيتك وتتغير، لم تلحق بالحوادث وهي تتدفق بلا حكمة وتجرف من طريقها العواطف، تسفه الآراء، تنتهك الأفكار. حين تتساءل تأتيك الطامة الكبرى، جواب بارد مثل نصل سكين ثلم، يجز عنقاً مملوء بدم الغضب "إنها الدنيا". الدنيا أم الناس؟ أجيبوني أيها الناس. من الذي يتسلى بألعاب غير منصفة، غير منطقية، غير نظيفة؟

من الذي يفرض على الرعايا أن تساق كالعبيد؟ من الذي يتلون؟ من له بكل أوان مزاج جديد وتقويمات جديدة؟ يغطي الكدر الوجوه، تتقزم النفوس وتتصاع بحسرة، تتناسى كل الأحلام التي عاشت بانتظار تحقيقها. بقي حلم واحد فقط، حلم واحد لا غير، تمسكوا بوجوده واستمر ينزف، حلم هو بذاته المدخل الأساسي للحياة، أن يعيشوا كما خلقوا أحراراً وباختيارية تامة دون تبعية لأحد، فإذا بكثير من الممنوعات مباحة وهو وحده المحرم عليهم، ترى من حرمه؟ قولوا أي شيء إلا إنها الدنيا.

لم يجد العزيمة الكافية لاعتبار ما به طارئاً وسيزول كما اعتاد أن يوهم نفسه، وأنه مخالف لروح المؤمن، مخالف لروح الحضارة الإنسانية. وقف طويلاً حيث هو، قبل أن يعدل عن قرار الذهاب، أحس بعيون من حوله ترمقه، تسائله بصمت حائر خائف " أهو المرض " شعر بالغبطة

لأنه قرر أن لا يشفي غليل تربصها وفضولها، وترك السؤال مزروعاً فيها بلا رحمة.

طالت جلسته في غرفة الجلوس، شغل نفسه بمراقبة تسلل ضوء خفيف مرتعش من خلف تلال الغيوم بين حين وآخر على وهن، جذبه انسجامه مع ألوان الغرفة الرمادية الضاربة إلى الزرقة، مع مزاجه الرمادي، ولون شعره الرمادي، وعمره الرمادي، تململ في جلسته المتحفزة على أريكته المعدة دائماً قرب باب الشرفة الزجاجي الموصد بإحكام بوجه هجمات البرد اللاذعة، وضع ساقية على مسند منخفض عن جلسته، تناول صحف الصباح ونشرها أمام ناظريه.

كالعادة لا جديد في الصحف، بل كل شئ جديد، ابتكار وسائل جديدة للوصول إلى أهداف محددة في الرؤوس الكبيرة المتعاظمة، كيفية الوصول إلى التملك العام والتام بوضع اليد، أمر خطير لا نرى منه إلا سهولة التنفيذ، يعدونه على مهل، على المدى البعيد، سياسة الخطوة خطوة، يحرصون علينا من هول الصدمة فيسقونها لنا بتأن، وعندهم الحق، لم العجلة، فلن يهم الشاة سلخها بعد ذبحها.

نحن أقدر الشعوب على شرب العلقم دون الإحساس به، ثم يأتي التغيير فلا نشارك في صنعه، لا نباركه ولا نرفضه، لكننا كالنعاج نعيش تبعاته، ونبدأ نعد العدة لتقبل تحصيل الحاصل في النفوس والعقول، وبالكاد تبدأ نتفهم بعد فوات الأوان، ننشغل بالأمر زمناً طويلاً حتى ينهكنا فننساه. ننساه بفضل تغيير جديد أشد شراسة وأوضح معنى

ومغزى، نبتلع الطعم من جديد ونعيد ونزيد من جديد، نتعب ونمل وننسى من جديد، ليعود ويشغلنا تغيير جديد وهكذا دواليك.

فجأة خرج عن صمته وعذابه الداخلي الذي لا يرحم فصرخ " آخ .. آخ.. كل كلمة في كل عمود وكل خبر، لا فرق بينه وبين مهمة صور الإعلانات وألوانها، هي تروج بضائع وسلعاً وهم يرجون أفكاراً ومبادئ . حقائق واضحة وضوح شمس نهار صيفي بين السطور، لكن من يقرأ السطور وما بين السطور، ومن يستمع لمن ينوه لذلك، ولا يتهمونه بالجنون وبعقدة المؤامرة، عندهم كل الحق، فهذه شماعة كل مغلوب على أمره".

تحركت زوجته نحوه ببدانتها التي تثير دهشته غالباً. كيف تسنى لها أن تجمع هذا الكم من الشحم واللحم والكثير من الناس جياع عراة؟ في البداية استنكر تساؤله اللئيم، ثم وجه لوماً صارماً لنفسه، منذ متى لم يعد يحس بوجودها أو حتى يلحظها ؟ نظر نحوها بفضول، كانت تقترب منه بثوب فضفاض ليخفي تلك الأرطال الزائدة عن الحد، ما تزال آثار النوم على وجهها المكتنز، وكذلك على عينيها المنتفختين الفارغتين. همس دون أن تسمع "هنيئاً لك، لا تحملين هماً في الدنيا ولا خوفاً من عذاب الآخرة، أنت في سكون الأموات" وصلته أخيراً، كان مازال يتابعها، انحنت على أذنه بتمهل، وسألته بصوت قلق "هل مازال الصداع مستمراً"

لم يرفع عيناً ولا رفت له جارحة، فاستدارت عائدة من حيث أتت، شق سكون النفوس المتربصة صوت تمزق أوراق الصحيفة بنزق بين أصابعه المتشنجة، كأنها تضغط على أعناق تحمل رؤوساً ماتت فيها الكرامة.

تعلقت أنفاس الجميع على لحظة زمن، أحسوا بطولها وكأنهم صحوا بعد غفوة، القبضة مازالت محكمة على الصحيفة اليومية، وعلى أعناق رئيسها ومحرريها وكتبتها أجمعين. في العادة حين يكون معتدل المزاج، أو مسايراً الوقت، أو متقبلاً ما يجري أسوة بالجميع، لم تكن لتحظى من اهتمامه بلحظات، ثم يلقيها جانباً مهما كان اسمها ومهما كان شعارها، فما باله وقد انقلب احتجاجه الصامت إلى هياج. الإدانة يومية ومستمرة، تأتي بأشكال ومهمات مختلفة، تحت اسم صحف متنوعة تصنفها من نغمة كلامها ولا يغرك شعاراتها حرة أو مستقلة أو ناطقة بضمير.. فهي ليست سوى بيان يومي واضح وصريح يحث على إهدار كرامة، وفساد خلق وضمير، وموت أمة.

نغزه الألم في جانبه الأيمن، فشدد قبضته عليه. منذ التقى صديقه الطبيب المشهور منذ شهور، وسحبه رغماً عنه إلى عيادته الخاصة وهو يواظب على زيارته كلما اشتد الألم، وصف له العديد من الأدوية، مع بداية شعوره بالراحة بدأ يتساءل هل الدواء فعلاً هو الذي ساعده بعض الشيء أم إعجابه بقدرة الطبيب الفائقة على الاستسلام لكل مقادير الحياة؟ مرات عديدة بيت النية على تقليده، ثم تموت الفكرة في مهدها

حين يتصور نفسه يحمل كل هذه اللامبالاة على وجهه، يترك دهشته تكبر حين يراها ما زالت تتسع على وجه الطبيب بين حين وآخر وهو عالم وباحث كبير في اختصاصه.

لقد لاحظ ذلك منذ اللقاء الأول، كان يحكي للطبيب ما يعانيه بمنتهى الصراحة، صال الطبيب وجال في جغرافيته ثم سأله متحرياً تاريخه:

– أهناك مضايقات خاصة في حياتك؟ أعني مشاكل عائلية أو مالية أو عاطفية تجعلك في توتر وقلق؟

همس بعذاب:

– ماذا أقول ؟ سؤالك صعب يا صديقي..ظننتك تعرف أننا ومنذ زمن بعيد تخطتنا رفاهية أن يكون لنا هموم خاصة، وتعرف أكثر مني مدى تعنت الحياة.

تنبه على ابتسامة هازئة تتراقص على شفتيّ الطبيب، يخفيها بصوت مهيب يحثه على الصراحة. إذن لم يكن يتابعه، ولم يستمع لأقواله. نظر إلى وجهه باستغراب، في عينيه نظرات ماجنة تجاهلها، لعله بانتظار قول ما يساعده على التشخيص "وكفى الله المؤمنين شر القتال" همس الطبيب مشجعاً بخفة ومزاح:

– هيا يا رجل تكلم..بح لي بما يشغلك، إنه فائض الإدرينالين المسئول المباشر عن العواطف والمشاعر، ليس بك أي مرض عضوي، صدقني يا رجل.

طأطأ رأسه مؤكداً إفادته التي باح بها في أول اللقاء :

– لا أعرف أكثر من أنني متعب يا دكتور.. متعب جداً، تتغير أحوالي بين ساعة وأخرى، أكون في منتهى الراحة، فجأة ينحرف مزاجي وأصبح إنساناً آخر، ليس عندي مشاكل خاصة تؤرقني، ولو وجدت لما أخجلتني وأربكتني كما أنا الآن

كم مرة قرر ألا يعود مرة أخرى، لكنه عاد وسيعود، فهناك يفتح قلبه على مصراعيه بلا تحفظ، فأولاً الطبيب صديق، وثانياً يستمع ولا يبوح بأسرار مرضاه بحكم أمانة المهنة، وثالثاً هو يدفع له بعد كل زيارة أكثر مما هو مطلوب، يعني يشتري وقت هذا الطبيب والصديق، فلماذا لا يذهب لعل معجزة تحدث ويتوصل معه إلى حل جذري لعدائه المستحكم تجاه التغيير، فقد يأتي يوم وتطوف على وجهه شخصياً مثل تلك الابتسامة التي أذهلته على وجه الطبيب.

جالس منذ ساعات في مكتبه، السأم واضح على وجهه، غير مهيأ إطلاقاً لإنجاز أرتال المهمات الملقاة على عاتقه. لم يستطع أن يكبح رغبته في تفرس وجوه الآخرين، موظفين وعاملين ومراجعين، أصبحت رغبته في قراءة الوجوه التي كانت تراوده ويتندر بها استماتة لاختراق ستار وهمي يختبئون خلفه ببراعة مذهلة، كيف يصدق هدوءهم المبرمج على الوجوه بينما يرى القلق يعصف وينخر بالجذور؟

تتردد صرخة تلو الأخرى في داخل نفسه: نصيحة لوجه الله، لا أريد منكم جزاء ولا شكوراً، فقط اسمعوا وعوا، لا تدعوا القلق يفترسكم،

الطريقة المثلى هي أن تصرخوا، أن تعلنوا التمرد، اقذفوا بأنفسكم إلى وسط معمعة الصراع ضده، القلق غول، القلق عدو ظالم، لا يخدعنكم إن هدأ أو غفا واستجاب للقمع، سيبقى متأججاً وسيشتعل حالما تسالمون وتصدقون.

ترك مكتبه لا يلوي على شيء، توقف أمام المكتب المجاور لمكتبه، دخل مسرعاً وجد صديقه جالساً بمنتهى الهدوء، يجادل زميلاً آخر في مواضيع الفتنة في الحياة. اخترقت جملة سمعه "ألم يقل لنا لا تنسوا نصيبكم من الدنيا" كلام مبتور ناقص لذلك يبدو ممجوجاً ليس هنا مكانه ولا أوانه. مثل هذه الكلمات تبدأ عادة مجرد ثرثرة ثم تصفّ وتنمق من فراغ، وفجأة تصبح قانوناً يتحصن خلفه صانعوه. تتغير الأحاديث، تدين من لا يستحق الإدانة، وترفع مقام من لا يستحق.

جر المقعد الخشبي من جانب باب المكتب يجلس عليه عادة أحد السعاة وجلس عليه، تماماً وسطهما، حياهما ردّا التحية وأنصتا في توجس، لا يمكن أن يتحرك الجبل من مكانه دون قصد وغاية في أوقات العمل المقدسة.

التفت إلى الجالس على يمينه مرة، وإلى الجالس على شماله مرة، قال:

– هناك سؤال لكما معاً، سيجيب عنه أحدكما، ومن حق الآخر تأييده أو معارضته. موافقان؟

هز كل منهما رأسه بصمت. قال:

– حسناً.. هل ما تقومان به من عمل يعطيكما متعة حقيقية وشعوراً بالرضا والاكتفاء والإشباع؟

لم يجب أي منهما، رأيهما فيه أصبح يقيناً الآن، إنه مشاكس من الدرجة الأولى يبحث عن المشاكل ولو كانت في آخر الدنيا، يصعّب الأمور حتى الهينة منها. لم يشاءا زج نفسيهما فيما يشغله دون مبرر. انتظر فترة غير قصيرة ظنا أنه نسي ما جاء من أجله، تحركا من مجلسيهما سوياً، سمعاه يحدث نفسه :

– يمارس الجميع أهون الشرور، الاستسلام حتى الإدمان، تناسوا أمسهم ويومهم ويعيشون أملاً زائفاً في غدهم، متجاهلين أنه لن يتحقق دون بذل وعطاء، وقد يستغربون إذا ما سرق منهم الغد أيضاً.

ثم قال بعد صمت جديد:

– مساكين! الزمن ليس في صالحكم، فسحة من وقت مستمر في الدوران، مستمر في التقلب رغم كل الأنوف.عندكم حق، كيف تدافعون عن الغد الآتي وأنتم لا تملكون فيه قيد أنملة؟ كيف تخططون لاستثماره؟ من المسئول؟ من يا ترى؟ هل هي قصة الدجاجة والبيضة مرة أخرى؟

خرج كما دخل دون استئذان في طريقه توقف أمام باب السكرتارية، طلب إرسال السكرتيرة المسئولة عن مكتبه، التف عائداً إلى مكتبه، وجد إحداهن واقفة على المدخل أفسحت له الطريق فدخل وجلس بينما تبعته وجلست على الطرف المقابل له تنتظر، انهمك في عمله طويلاً وحين رفع رأسه وجدها مازالت ممسكة بيدها قلمها وأوراقها تنتظر تعليماته، إنها

هي بذاتها ولكنه معذور إذ لم يعرفها، فهي حتى يوم أمس فقط كانت سمراء ذات شعر أسود طويل وعيناها سوداوان فاتنتان، وهذه الجالسة أمامه اليوم ،الآن، شقراء، شعرها قصير، وعيناها خضراوان أو لعلهما زرقاوان لم يتأكد بعد بحيث يتناسب مع هذا التجديد. كل شيء يتحرك بسرعة مذهلة ماعداه، ماذا سيفعل؟

العودة للطبيب مرة أخرى وأخرى، لن ييأس، شرع يتحدث بإسهاب ممل والطبيب يهز رأسه علامة المتابعة، اندفعت الكلمات بطلاقه أكبر وحماسة رائعة كأنه يحلل أزمة العالم المستعصية:

– أعتقد يا دكتور أنني من الفئة المعذبة إنسانياً، تجلدني قلة حيلتي أمام مجريات الأمور على اتساع العالم كله، يذوي كل ما بي مع شعوري بعدم جدواه. طوال يومي يا طبيب أبلع ريقاً جافاً مالحاً فأستشعره حارقاً يلهب حلقي وجوفي، كأنه ينفث سموماً في شراييني، يؤذيني كل ما أراه، وكذلك كل ما أسمعه، كل ما أشمه، كل ما ألمسه، يحاصرني دماغي بحالة طوارئ مستميتة للدفاع عني، فتأتيني أوامر متناقضة تزيدني حيرة، قف، اجلس،ارفض، اصمت، تقدم، اهرب، فأتجمد، أصاب بالرعب، أتمرد على الأوامر تارة وأزداد خنوعاً لتنفيذها تارة أخرى، وتزداد حدة الصراع والصداع و...هل يسبب شيء مثل هذا تدفق الأدرينالين؟

صمت برهة، الطبيب ليس معه تماماً، لاحظ أن الطبيب مشغول بقراءة أوراق المريض الذي يليه، ووسط فزعه واندهاشه ناولته الممرضة أوراق تحويله إلى طبيب نفسي، يسحب نفسه ليفسح المجال للمريض

القادم، فيراه بوضوح، حالة أخرى لها الملامح نفسها والهموم نفسها التي يعاني منها هو شخصياً.

تحسن الجو في الخارج وما زال البيت على هدوئه وسكونه منذ الصباح. جلس أمام مائدة الطعام وقام دون أن يلمس شيئاً، لم يسمع تعليقاً من حوله، عاد إلى جلسته الصباحية، كان أكثر هدوءاً بعد الجولة الفكرية المطولة مع نفسه، لذلك عقد العزم على الذهاب إلى العمل وحضور اجتماع مجلس الإدارة الأسبوعي في المساء، لأول مرة منذ سنوات طويلة يحضر الاجتماع بصفته عضواً فيه وليس رئيساً له.

افتتح سكرتير المجلس الاجتماع بقراءة نص تنحيته عن منصبه، لأن حالته الصحية غير المطمئنة تؤثر على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب. "لكنني لست مريضاً" قالها ولم يسمعه أحد. "استقلت من منصبي بكامل إرادتي" لم يرد أحد. "هذا ليس اجتماع مجلس إدارة، هذا سوق خضار" بقي الهرج سائداً "كل منكم يدلل على بضاعته" لم يهتم أحد أيضاً، لكنهم معذورون هذه المرة فقد كان يهمس بالكلمات لنفسه .

الجدل عقيم رغم سخونته، هكذا أراده الرئيس الجديد فليكن، من سوء الحظ أن التغييرات جاءت في هذه الحلكة من أيامه، ومع ذلك لا يهم. أدار نظراته في الوجوه الجالسة، والأجساد المتشبثة بالكراسي المرقمة حسب أماكنها ومكانتها على مائدة الاجتماع والتي أخذت شكل حدوة الحصان لتجلب الحظ أو لتدفع الحسد أو شيء من هذا القبيل، لا

يهم، ملئ تجويفها بكل أنواع الزهور وألوانها، علـى الأقل هناك شئ وحيد زاه في المكان، لا هذا ليس اتهاماً، إنه أكثر من ذلك بكثير.

كل شئ كان يلمع ماعدا الوجوه، قسماتها متهدلة حافلة ببصمات الزمـان، لا حـرارة فيهـا، انفعالهـا مـدروس ومقـرر ومحكـوم بكيـف ومتـى، العيـون مـن وراء النظـارات الطبيـة باهتـة كأنهـا ينـابيع جفت الحيـاة فيهـا، الشـفاه مكتومـة باسـتياء مـن إجهـاض قسـري لأي اعتـراض، كلهـم تقريبـاً بكروش محشورة خلف حافة مائدة الحوار بقسوة، شعورهم بالضيق يسرق عقـولهم، فـلا تقـوى علـى التفكيـر إلا بلحظـة الانفـراج وانتهـاء الجلسـة ليخرجوا من المأزق.

عقله أيضاً شرد بعيداً، لا يدري لماذا ربط بين هذه الوجوه والوجوه الأخرى المرصوصة خارج عيادة الطبيب على طول دهليز خيل إليه أنه بـلا نهايـة، وجـوه تنتظـر بأمـل، والحقيقـة لا تقبـل الشـك تنتظـرهم فـي الداخل، دقائق وستصبح حالات وتحول إلى الطبيب النفسي.

همـس لنفسـه كعادتـه حـين يصـدر حكمـاً تقليـدياً بعـد كـل ثـورة واحتجـاج علـى أوضـاع يتمنـى لهـا التغييـر" أي فائـدة ستجني من التفكير فـي بـدائل لمـا هـو قـائم؟ مـن الصـعب أن تنفث الـروح فـي نفوس خاويـة محاصرة بالموت من كل جهة، هل يجدي بث حماسة من أي نوع في نفوس منهزمـة منذ عشـرات السـنين.؟ أبـداً، بـل مـن المؤكـد أن الأجيـال القادمة ستتوارثها."

صرخ رئيس الجلسة، وهو يدق بيده على الطاولة اللامعة أمامه لافتاً انتباه الجميع:

– لقد صدمت بعد استلامي مهام منصبي حين وجدت للأسف الشديد أن التدهور مستمر سنة بعد أخرى. ماذا أصاب العقول والنفوس؟ لا جديد أبداً لا جديد على الإطلاق، كيف قتل طموح النفوس؟ لم يعد أحد يثق بآخر ولا أحد يعترف بقدرات الآخر، مشاكلنا الكبيرة منها والصغيرة تراوح مكانها وتستعصي على الحل، لماذا في تقديركم؟

قال في نفسه المكلومة " آه لماذا لم أصرخ وأدق بيدي بتلك الطريقة المرعبة؟ يا لي من ساذج، طوال سنوات جلوسي على هذا العرش، كنت أرى الناس سواسية" تنبه مرة أخرى، صوت نائب المدير والذي كان نائبه كل تلك السنين:

– منذ زمن طويل يا سيادة المدير، منذ أن تخلينا عن شرعية العمل كفريق، ماذا بيدنا؟ هذه سياسة الإدارة، والناس على دين ملوكهم، أصبح كل منا يعمل منفرداً، يريد تسجيل هدفاً دون الآخرين، هذا يا سيدي ما أشعل نار الكراهية والمنافسة غير الشريفة، لم نكن نعرف من أشعلها ولا لماذا ولا من هو المستفيد؟ كل شيء سيتغير إلى الأفضل في عهدكم يا سيادة الرئيس.

كشف النائب العزيز عن مواهب جديدة ما كان لها أن تجد فرصة للظهور بعهدي، افتعال مثل هذا الغضب والحماس والغيرة على المصلحة العامة لم يكن بحاجة لها لتعزيز مكانته بنفاقي.

سيستمر هو رغم أنف الجميع والطب في أخذ كل أمر على محمل الجد، سيبقى رافضاً العمل ضمن شروط وقوالب وإرشادات، سيمارس هواية قراءة الوجوه الماثلة أمامه والمصورة ، خصوصاً بعد أن أصبحت تلعب على المكشوف ودون مواربة.

لم يجد بداً من التدخل رغم قراره التزام الحياد نظراً لسوء حالته النفسية في ذلك اليوم بالتحديد، خوفاً من أن يتحقق إحساسه الطاغي بأن اليوم غير عادي وكأنه يحمل نذراً، قال متأنياً:

– يتساءل النائب العزيز عمن يؤجج نار الكراهية والمنافسة، أجيبه عن طيب خاطر بأنهم العصبة الجسورة التي تمردت على كل القيم والنظم، والتزمت بشعار الدنيا الخالد، الجسارة والقوة من أجل الصدارة، من أجل السيادة، والتحكم في أقدار البشر بل وأقواتهم .

عاد الرئيس للدق على الطاولة إشارة البدء بالكلام، لم يصله شيء منه. الكلام سيبقى عبثاً ما لم تتعدل القوانين التي تحرم على الغالبية العظمى أي شعور بإنسانيتها حتى ولو كان الإحساس بالظلم، وإبطال العمل بشريعة الغاب. اشتعل حماساً وهو يسمع كلاماً يشبه ذلك الذي يدور في فكره على لسان الرئيس، فوقف وقاطعه بجرأة :

– سيدي الرئيس ..إذا كانت قوانين المؤسسات قد أغفلت حقنا بالعيش الكريم، فمن حق كل منا أن يبحث عن وسيلة حيوية للدفاع عن هذا الحق، كلنا نرفض أن نعيش أسرى الخوف من الغد، نرفض قبول أي أسلوب بربري يمارس فيه ال...

قاطعة الرئيس بغلظة:

– أسلوبك هو البربري يا سيادة العضو المحترم، كما ترى لم تتعلم حتى الآن كيفية الاستئذان في الكلام، أو حتى كيف تنتقيه.

قام بعصبية من مجلسه فأطاح بالمقعد من خلفه بعيداً عنه ليوسع مكاناً لخطواته الجسورة العصبية وصرخ :

– أتساءل، وهذا من حقي، هل جميع الذين يأخذون مكان الصدارة والحل والربط يتمتعون بأهلية تخولهم ممارسة سلطتهم بالضغط علينا ؟ أليس من حقنا أن نتمتع بحرية القول وحرية الفكر وحرية العمل المنطقي الجاد؟

ترك المكان ثم غادر المبنى على عجل، توقف لحظات لتهدأ أنفاسه المتهدجة، وقف أمام الفندق الكبير، دخل متخطياً الصالة الكبيرة متجاهلاً الترحيب والتودد من الجميع، ارتقى المصعد إلى الدور الأخير حيث المطعم الفاخر، انتقى مكاناً قصياً طالباً قهوة مرة ، وأصرّ بصوت حزين على أن تكون مرارتها أكثر من المعقول .دهش النادل من هذا الطلب في وقت العشاء، ظل واقفاً بانتظار المزيد من الطلبات رفع رأسه ونظر في عينيه وأعاد الطلب. قهوة مرة مثل الموت أفهمت؟ قهوة فقط .

عاد إلى بيته قبل انتصاف الليل بقليل، لم ينتبه أحد لعودته. تسلل إلى شرفة غرفة نومه العالية، وقف منتصباً بجدية، مطلاً على الحديقة الواسعة، صامتاً متأملا، يلامس زراً بعد الآخر بتكاسل، فتضاء زوايا الحديقة زاوية بعد أخرى ثم تنطفئ وتعود للإضاءة من جديد، تشع

الخضرة تحت الأضواء المبهرة، يرى من ذلك العل بوضوح الأشجار العالية والضخمة، تهتز بقوة أمام الرياح العاتية، تتمايل تارة وتنحني تارة أخرى، سخر قائلاً "إنها طريقة أخرى للهروب من جبروت القوة" فكّر.. هو نفسه يهرب بالمرض الجسماني، تمنى لو كان فعلاً مريضاً، المرض العضوي مهما كان أرحم ألف مرة مما يعانيه. تكدس الهموم في عقله أفسد كل توافق وتواصل على الأقل مع نفسه مع أهله وخاصته.

البرد يشتد وجسده يتلقى صفعات الهواء الباردة باستسلام حزين، كل أيامه ولياليه باردة، ألم يعتد على ذلك بعد؟ الأيام عموماً قاسية وباردة وبلا معنى، لكنها تكون أشد عنتاً حين تحتفل بساديتها فتمارسها على الصفوة، الفئة القادرة على إنكار الذات والتوحد مع آلام الآخرين، وبذل كل طاقاتهم ليرتفعوا بأحاسيسهم وعواطفهم نحو الكمال، ارتضوا العيش رغم ضيق فسحة الأمل. مع كل ما في نفوسهم من نزاهة، فشلوا في التكيف مع تلك الطغمة المسعورة التي فقدت نعمة الرؤية، هؤلاء حقاً لم يصبحوا حالات بعد، ولكنهم يعيشون في مصحة بحجم الدنيا.

كبرت الصورة في خياله المرهق، أخذ يحدد صفاتهم وأخلاقياتهم فلم يقدر، ما أكثرهم.. تفشوا بشكل مرعب، يمكن لأي منا أن يحصي شعر رأسه بسهولة أكثر من إحصائهم، يتاجرون بالموت، بكل أشكاله، ضمائر ميتة، وجلود أدمنت البلادة، وذمم مطاطية، وتخلّص نهائي من عبودية القيم والمثل العليا، وراحة تامة في أحضان مدنية مزيفة فوضوية منحلة تدّعي الحضارة والتقدم.

انطلق خارجاً وهو سادر في هذيانه ، في الطريق يتخبط وقد أضاع اتجاهاته وتكدر خاطره. هل عليه الذهاب إلى الطبيب النفسي غداً ؟ نعم سيذهب، سيخبره بأنه قد توصل لمعرفة العلة، إنها بداية نهاية كل نبض في الحياة. سيوجه له أسئلة حيرته منذ زمن طويل. سيسأله: هل من بين مرضاه أحد أولئك الذين يعيثون في الأرض الفساد، أم من الفئة الأخرى، التي تملك حق كف الأيدي عن الأذى والإتيان بممارسات لا شرعية؟ قد لا يقومون بواجباتهم لأسباب قهرية، فيدعون أن الأدلة لإدانتهم غير كافية. سيسأله أيضاً: كيف لا يرونهم وهم يتآمرون على القتل العلني والجماعي كأنهم يقومون برحلة صيد ترفيهاً عن النفس ؟ أو وهم يدوسون بأقدامهم على براعم الأزهار؟ كيف لم يروا مخالبهم تغرس بكل الأحياء دون تمييز، بلا رحمة.؟ كيف لم يقتنعوا بأنهم بتهاونهم يهيئون لهم الأسباب والرقاب؟ فجأة صمت ثم توقف ....

توقف طويلاً مشدوهاً لم يميز دربه، خطا بضع خطوات وتوقف في منتصف الشارع، أبواق السيارات تدوي حوله ليفسح لها المجال للعبور، صراخ من كل الجهات، فجأة نطق بكلمات مبهمة زادته حيرة..أين أنا؟ وبصوت أعلى من أنا؟

صرخ أحدهم من سيارته الفارهة بسخرية :

"ألا تعرف من أنت"

أطلق ضحكة دوت في أذنيه فحاول أن يجد ما يقول فلم يسعفه عقله ومع ذلك أجاب بجدية:

– من قال هذا؟ نعم أعرف من أنا.

لاحظ بعد قليل رجلاً يندفع من أحد البيوت فيقف في وسط الشارع وهو يصرخ، ثم خرجت امرأة من بيت آخر، أخذ يعدو في شوارع المدينة النائمة الصاحية، في كل مكان كامن يرى رجالاً ونساء يقفون في وسط الشارع يصرخون..ظل يركض.....

أشواق الإنـسان

اجتازت الباب الكبير متباطئة، سارت في خطها المرسوم عبر الصالات الواسعة والممرات المتعددة في البيت الفخم العريق الذي تقيم فيه منذ تم ترحيلها عن وطنها واستضافتها صاحبته. تجنبت ألا تتلاقى نظراتها بأعين النزلاء الآخرين، تكاد تعرف مكان كل فرد منهم في مثل هذا الوقت من الليل، فقد جرت العادة على قضاء بعض من الوقت مجتمعين كأفراد أسرة واحدة قبل الذهاب إلى النوم.

كانت هذه رغبة السيدة جيهان صاحبة البيت، أرادت أن يبقى بيتها مأهولاً كما كان قبل وفاة زوجها وتفرق الأبناء. أحالته إلى نزل صغير، تعيش فيه، وتتخير نزلاءه بدقة وخبرة طويلة في معرفة الحياة والناس.

لم تتخل عن تجهمها، ولا عن عصبيتها، اتجهت مباشرة إلى غرفتها دون تركيز، فقد كانت تعرف طريقها بدقة حتى ولو كانت

معصوبة العينين، لا تضل ولا تصطدم بشيء أمامها، فالوصول إلى غرفتها البعيدة في أقصى مكان في الطابق العلوي يحتم عليها هذه السياحة في أرجاء المنزل الكبير مرتين أو أكثر في اليوم الواحد.

لمحت ابتسامة مضيفتها أو لعلها أحست بها، كانت تخصها بها بعد عودتها من عملها، تحمّلها معاني حميمة مشجعة أو مواسية، أو لربما أصبحت مع طول الإقامة محبة وتقديراً لظروفها الخاصة المحزنة. اليوم لم تستطع التجاوب معها بسبب الغيظ الذي ملأ نفسها بعد المشادة التي حصلت بينها وبين سامي. وصلت إلى غرفتها، أغلقت بابها خلفها، ألقت حقيبتها واتجهت مباشرة إلى مرآتها وجلست تحدق بها، كانت جفونها محمرة دون بكاء. منذ زمن لم تعد تبكي بسهولة، فجأة جفت دموعها، لكنها أصبحت تبكي بصمت وبدون دموع إذا ما اعتصرها الألم.

منذ دخل سامي حياتها أضيف عبء جديد على نفسها المترعة بكل ألوان الأسى والعذاب، كان عجولاً لا يترك لها فرصة من الوقت لتعرف مكانته عندها، يلاحقها طوال الوقت بإلحاح وكأن الدنيا ستنتهي، تعترف له ولنفسها بأنها لم تعد قادرة على الاستغناء عنه لكنها لا تستطيع التجاوب مع مشاعره الفياضة بالشكل الذي يرضيه .

لقد روضت نفسها على التحمل، تتغلب على الألم بسرعة حالما يلم بها، سواء كان نفسياً أم جسدياً، لم يعد يؤلمها مثلاً أنها ضيفة هنا في هذا البيت، كانت واثقة من أن أقامتها فيه إقامة مؤقتة وإن بقيت هنا بقية

عمرها، لقد استطاعت أن تشرب جرعة الألم الكبيرة ببسالة ورضا تام حين انتزعت من أرضها وألقيت على الحدود مثل أي كلب أجرب، وأبعدت عن وطنها وبيتها وأهلها، وقبلت الرحيل، وبالشجاعة ذاتها وقعت بنفسها صك المقايضة بالإبعاد ثمناً لخروجها من سجن الاحتلال الطويل.

لكن سامي، هذا الألم الجديد، كان أقوى منها، فقد أعادها إلى الوقوف على حد سكين الألم القديم. سامي يعني العودة إلى دنيا الناس العاديين، أولئك الذين لا يعرفون معاني أخرى للحياة بشكل عام، ولا يتفهمون أمثالها شخصياً بشكل خاص. كلما حاولت الخلاص واتخاذ قرار، يعود أحمد للظهور، وللحياة من جديد، فتراه وتكلمه وتحس مدى فناءها فيه فتحجم .

مدت أصابع متوترة تحرر شعرها، انسدل على كتفيها طويلاً غزيراً أسود لامعاً، أصبح عمره الآن ألف يوم، أحاط بوجهها الأسمر الجميل وعنقها الطويل، لكن عينيها لم تعودا تحفلان بالنظرة الأنثوية الرائعة التي كانت تشع من حولها بريقاً مدهشاً، سكنت عمقهما نظرة أخرى عنيدة متحدية إلى درجة القسوة، ابتسمت بحزن، ما زالت كلمات سامي الرقيقة تتردد في مسامعها.

بنات جنسها كلهن تطربهن كلمات الإطراء والغزل، لكنها ليست أي بنت. قال:" جمالك عجيب، له مفعول السحر، يذيب من أعماقي ترسبات جليدية مترسبة هناك منذ أن وعيت الدنيا" رددت بينها وبين

نفسها وهي تخلع عن جسدها قميصها القطني الرخيص فيظهر جلدها وقد شفي من كل أثر للتعذيب. هل ما زال الجمال جواز مرور إلى القلوب والنفوس؟

هناك.. أيام الشباب الغض، والنضال الحر، قال أحمد لها كلمات تشبه هذه الكلمات، لكن كان لها طعم آخر. أحمد آه..كم كان مختلفاً عن كل الرجال، كان يرى الأمور من منظور مختلف، فيحكم عليها بما هو فوق الحس والوعي العادي. حينما انضمت إلى مجموعته كانت صغيرة غرة لم تتجاوز ثمانية عشر عاماً من عمرها ومع ذلك أثبتت جدارة وأشاعت بين الرفاق الحماسة فقال لها:" وجودك أضاف إلى مجموعتنا نبضاً حلواً إلى جانب المرارة التي نعيشها، والحزن الذي يعلو جمالك يجسد قضيتنا بكل أبعادها حتى الأمل الموعود".

لشد ما تتغير الأشياء على خارطة الأزمان دون أن يدرك معنى التغيير ومداه إلا من انسحق مرات ومرات تحت نعال الظلم والقهر وقلة الحيلة. كم يختلف شباب الداخل في الأرض المحتلة عن شباب الخارج في أراضي المهجر، لكل منهم معاناته وأعذاره وطريقة خاصة للعيش، معذور سامي إذا بالغ في التعبير عن استيائه من إعراضها عن دعوته لها إلى الحياة والحب، لكنه أحسن كثيراً في تحليله لرفضها بأنه نتيجة معاناتها الطويلة في ظل مقاومة الاحتلال، لكن هل استطاع أن يتوصل إلى أي حدّ يتعشق المقاوم حالة الرفض حين تفرض عليه كأسلوب

حياة؟ هل يعرف معنى أن تفرغ أيامه إلا منها، يعيشها بكليته، تطغى على ذاته، يلتحم بها، ويذوب فيها؟

سامي شاب واع ومثقف، ما يعرفه -*وهو كثير*- ما زال مجرد نظريات وحماسة، لم توضع بعد موضع التنفيذ، وشتان ما بين هذا وذاك. يقولون إن من يده في الماء ليس كمن يده في النار، وهذا هو الفرق بينها وبين سامي، بين سامي وأحمد. سامي يردد نظريات وجملاً رنانة، شأنه شأن مجتمعه الذي يعيش فيه، يقول كلاماً كبيراً لو نفذ جزء منه لتغير الحال منذ أجيال، ربما أنقذ أحمد من الموت، وربما لم تطرد من بيتها. عرفت الحقيقة لكنها لم تبح له بها، فسامي يعيش على الحلم الطري وعلى الأمل الكبير، بينما أحمد تخطى كل ذلك منذ طفولته، كبر قبل الأوان تحت أنظمة الاحتلال، عاش يخطط بصمت وينفذ بهمة، عاش الواقع ودفع ثمنه غالياً.

ما كدرها بل ما أحزنها حقيقية من سامي ليس إلحاحه المتواصل، ولكن لأنه لم يعد يطيق سماع أحاديثها المتكررة عن بطولات أحمد أمامه أو أمام الشباب لتثير حماستهم. كان اليوم في منتهى القسوة حين اتهمها بأنها تربط نفسها بنموذج من البشر نادر الوجود، أو غير موجود أصلاً إلا في مخيلتها، كان يقصد أحمد بطبيعة الحال، فجرح مشاعرها دون قصد.

ليته عرف أحمد حقيقة، إذن لأثبتت له الأيام أنها صورة مصغرة عنه، فقد تعلمت الحياة على يديه، عرفت روعتها وأبعادها، فلن ترضى

بحياة أقل منها. سيعرف ذات يوم الوجه الآخر المشوه المختبئ وراء هذا الوجه الجميل، وسيتعرف على الأفكار التي تدور في هذا الرأس الذي يحاول اقتحامه، سيتأكد عندها من مدى عمق إيمانها بقواها وبشجاعتها كإنسان مستقل، ومدى قناعتها بقيمة الحب والعطاء، بعد ذلك سيكف عن اتهامها بأنها باعت نفسها للموت بينما الحياة ما زالت تنبض فيها وتناديها، له العذر، لم ير منها منذ عرفها وحتى الآن إلا عجز عواطفها حين يكون البذل مطلوباً.

هنا في هذه الغرفة تلوذ بذاكرتها، تصقلها تلمعها لا تريد أن يخبو ما بداخلها، تعلمت بأن تلقي عن نفسها متاعب نهارها، أعباء العمل الذي تقوم به في ورشة بناء قرب الحدود، كانت تقوم بالعديد من الأعمال في وقت واحد، فقط لتبقى قريبة من هواء بلادها، بينما سامي جاء مهندساً للمشروع منتدباً من الشركة التي يعمل بها في العاصمة. هي وأحمد فلسطينيان وسامي كذلك، ولكن هل حقاً تجمعهم جنسية واحدة. أحمد توحد مع الأرض حياً وميتاً منذ زمن، وهي ابنة الأرض بكل صفائها ونقائها وصلابتها، وسامي لم يعد فلسطينياً خالصًا ولا لوم عليه، فهذا شيء طبيعي في المهجر.

يوم آخر من سلسلة أيام أصبحت سنوات، ترفض إلا أن تحسبها بالأيام، اليوم هو الألف، ألف يوم، ألف رفض، ألف إصرار، وتقبلت كل ذلك في سلام، تماماً مثلما تتحمل التعب في كل جزء من جسدها

المرهق، عبثاً تحاول النوم، تزفر بتضجر..أف لماذا اليوم؟ ذكرى موت أحمد، ذكرى إبعادها، أم هذا القلق الذي يسببه لها سامي كل يوم؟

تنتزع عينيها من سقف الغرفة التي تموج فيها أشباح لها رؤوس مدببة تتراقص كألسنة اللهب، أو تسري مثل جداول دماء نازفة، لم تعرف لماذا ازدادت الليلة وضوحاً مع أنها محض خيال. دفنت رأسها في وسادتها، أطبقت عينيها بإجهاد، ومع ذلك استمر العذاب.

أضاءت نوراً خافتاً بجانب سريرها وجلست مسندة ظهرها على حافة السرير الخشبي الموشى بالصدف مثل مرآتها التي أمامها، لقد ضبطت نفسها كثيراً تنظر نحوها، تتفرس وتتأمل انعكاس صورتها هناك باهتمام، تساءلت بريبة: ما معنى هذا؟ لماذا جلست أمامها فور عودتي من الخارج وهذه ليست عادتي؟ جزعت، ومع ذلك لم تستطع صرف نظرها بعيداً عن صورة وجهها.

قرون مرت على آخر مرة فعلتها. هل عادت لها غرائزها الأنثوية من جديد، ولماذا؟ في ذلك اليوم البعيد وقفت تنظر بإعجاب إلى صورتها في مرآتها في بيتهم هناك، تتملى قوامها وتناسقه برضا وفرح، لقد أصبحت صبية، أصبحت عروساً كما تقول صديقات أمها.

كان ذلك يوم حصولها على الثانوية العامة قسم علمي بتفوق، يومها كانت تحسد نفسها على حظها الكبير في كل شيء، لم تكن تعير اهتماماً لمجريات الأمور في الوطن، كانت تعتقد أن هذه الأمور من اختصاص الكبار وخاصة الرجال. دارت حول نفسها للمرة الأخيرة أمام

مرآتها وسوت من هندامها حتى شعرت بالرضا التام خرجت إلى والدها فرحة بنجاحها.

لم ينتظرها حتى تقترب منه وتنحني لتقبيل يده، بل قفز إليها برجله المصابة الواضحة العرج، لقد أنسته الفرحة استعمال عكازه الذي قبل أخيراً استعماله بعد سنوات طويلة من الإصابة، احتضنها وقبلها وبكى، في تلك اللحظة أدركت لأول مرة في حياتها معنى العجز وسطوته ثم تتابعت المرات، احتضنته بدورها ومشت معه وهو متكئ على كتفها حتى عاد إلى جلسته على البساط الملون الكالح الذي أصبح مقر الجلوس الدائم لأفراد الأسرة والضيوف.

قال الأب بعد أن استراح:

– بارك الله فيك وبارك لك في كل أيامك.

رد أحد الزوار الجالسين بقربه:

– لقد أصبح نجاح الأبناء وتفوقهم موسم الفرح الوحيد في البلاد ولا نحاسب عليه، التحدي الوحيد الذي نمارسه ضد القهر المفروض علينا بقسوة، في هذه المواسم نؤكد لهم ولأنفسنا بكل شجاعة أنهم لم يكسرونا ولم يدفعوا بنا إلى اليأس والاستكانة كما يتمنون.

أقبلت الأم حاملة واجب الضيافة المتواضع فنجاناً من القهوة، قبلتها وصدحت بزغرودة طويلة وبعدها أجهشت في بكاء حاد اهتز له جسدها، احتضنت أمها ودفنت رأسها في صدرها، لا يهم أن تراها، يكفيها ما تحس من دفئها أو أن تسمع دقات القلب الكبير حتى يفيض الحب في

أعطافها وتشعر بالأمان والقوة. رغم هذا التداعي من شدة الفرح، فأمها هي أمها كما وعت عليها قوية صارمة، جميلة جداً رغم جفاف عودها وتواضع ملابسها، دائماً تراها امرأة غير عادية.

مر بخاطرها الوجه الحزين ولمعت العينان بالقوة والتصميم، كل يوم يسكنها التحدي أكثر، يا إلهي .. كم هي فخورة بها، خاصة حين كانت تراها تشارك في نقاشات السياسة برأي وتحليل رغم أنها شبه أمية، كان لها مقولة مشهورة إن السياسة هي الأم التي تلد الأيام المقبلة بكل ما فيها، ثم توجز بنصيحة: لا تتكهنوا بما سيحصل غداً، فالأمر في يد الكبار فقط فيردد الجميع بصوت واحد، صدقت يا أم نعيم.

تركت فراشها، جفاها النوم، فتحت باب شرفتها، شعرت برعدة خفيفة من برد الليل في تلك المنطقة القريبة من الجبال، لبست كنزتها القديمة ووقفت تتأمل الأوراق الخضراء في أصص الزرع الفاخر، كانت خضرتها داكنة في عتم الليل، لامست كنزتها التي كانت ترتديها، لا تعرف كم عمرها، فقد بهت لونها الأخضر الجميل لكنها لن تستغني عنها، لقد خلعها أحمد ذات يوم عن جسده والبسها إياها ليحميها من برد الليل حينما كانا يقومان معاً بتنفيذ عمليه في الأرض المحتلة. مدت يدها تربت على الأوراق الخضراء، المستكينة للظلمة، عبثية أخرى تؤكد أن الحياة للأقوى، هكذا خلقت الدنيا وهكذا ستبقى، إذن فلينعم بالصيد الحر كل القادرين عليه.

لقد خضعت هي أيضاً لقوى أشد خطراً من كل أسلحة الأرض، لعبت دوراً في تحطيم نفسيتها، تلك هي نظرات الذل في عيني أبيها، والخوف في عيني أمها، فقبلت بالمقايضة، الحبس مدى الحياة في سجونهم أو الإبعاد خارج الوطن، كلاهما سجن، كل منهما أمرّ من الآخر، لكنها اختارت الفرار، ليس من السجن، بل لأنها لم تعد تقوى على نظرات أبيها الملتاعة، كانت عيناه تدوران في محجريهما بلوعة كبيرة، تستجدي منها الموافقة على شرطهم للخروج حيناً، وتستجدي من السلطة وكلابها الرأفة بابنته حيناً آخر، صارت تراه يذوي، يتهدم بين زيارة وأخرى أثناء فترة سجنها، فوافقت وخرجت. أغرقت نفسها بعمل متواصل هنا لا صلة له بالأرض ولا بالوطن.

تركت باب الشرفة مفتوحاً، وجلست أمامه على الكرسي الهزاز الرتيب، استكانت طويلاً، صارت جزءاً من عتم الليل، الاهتزاز يمتص توترها، مر بخاطرها هذا البيت الذي تقيم فيه، وكل ما كان له من عز وجاه غنى وسطوة. كل ما تراه حولها يدل على افتتان ساكنيه بأنفسهم، بابتداع وسائل للراحة وللرفاهية مما لا يخطر على بال أمثالها. ترى ما الذي يتعب بال وأعصاب الناس المرتاحة من كل هموم الحياة حتى تحتاج لمثل هذا الاهتزاز الرتيب؟ أم هو مزيد من التمتع؟

قامت من مكانها لتجيب على النقر الخفيف على باب غرفتها، طالعتها ابتسامة السيدة الطيبة جيهان حاملة لها القهوة ، أفسحت لها

مجالاً للدخول، فقالت وهي تضع الصينية على المنضدة الصغيرة قرب باب الشرفة المشرع على وسعه:

- سمعت تحركاتك في الغرفة والشرفة فعلمت أنك قلقة ولكن حين فتحت هذا الباب بعصبية أدركت أنك بحاجة للقهوة الساخنة، ها هي أمامك.

تناولت القهوة وعادت للجلوس مكانها وجدت الكرسي مازال يتأرجح، تركت له نفسها يهدهدها، وتركت العنان لأفكارها لتلهو بعبثية حولها:

- شكراً لك .. كان يومي طويلاً وغير عادي فأرهقني، فأنا أعتذر لك عدم كياستي حين عودتي إلى البيت، لكن ذلك لا يعني مطلقاً أنني غير مقدرة ما توليني من محبة واهتمام، فتبددي من نفسي كل شعور بالألم والوحدة.

- لا عليك يا عزيزتي لقد أدركت ذلك بنفسي، وسمحت لنفسي بعدم تلبية رغبة سامي في رؤيتك وقد لحق بك بعد عودتك بقليل.

- أشكرك مرة أخرى، فأنا فعلاً بحاجة إلى الابتعاد عنه فترة حتى أستطيع تحديد موقفي منه تماماً، كنت قبل حضورك قلقة فعلاً، ولكني كنت أحس بنوع من التحرر من أشياء كثيرة، فهل يضايقك سماع ثرثرة أفكاري حتى وإن كانت مشوشة بعض الشيء، فأنا فعلاً بحاجة لمن يسمعني؟

– أبداً، بل يسعدني، فأنت بذلك تحققين لي ما تمنيته كثيراً، أن أسمع أفكارك حين تجنح بعيداً عن واقعنا الذي لا أعرف غيره، أحس عندها مدى تفردك عن بنات جيلك وجنسك، فأفرح كثيراً بأن جمعتني الظروف بمثلك، فأنت تعيشين حياة ممتلئة فعلاً وقولاً. هيا يا ابنتي.. انس وجودي وأطلقي عنان أفكارك، وحين تريدين مني المشاركة ستجدينني على أتم الاستعداد.

– إن ما يحدث لي يا عزيزتي شيء يشبه الخيال، هل تصدقين إن قلت لك أنني أرى إنساناً ميتاً منذ سنوات يجالسني ويحاورني؟ ليس فقط أراه بل أحس بحرارة أنفاسه، بالحماسة في كلامه، أيعقل هذا؟ الآن مثلاً أعني قبل حضورك، همست لنفسي أهدهدها "إن الشعور بالحرية شيء ممتع، يقربنا من السعادة" سمعت صوت أحمد يقول: "مهما كان الثمن؟"

صدقيني.. لقد رأيت وجهه، وابتسامة وجد تمرح بكل جارحة فيه، جاء مرة أخرى، هذا الإنسان أقرب إلى نفسي مني، ولكنه في بعض الأحيان يكون العدو الأكبر لأي ومضة سعادة فردية. قلت لنفسي، حسناً فعل، أريده أن يبقى معي وحولي، ولكن ما إن فتحت عينيي حتى تبدل الوجه، أصبح وجه سامي هو الأقرب، أقاوم حيرتي فتختلط الصورتان، حضور سامي يخلق نغمة نشاز في نفسي فيعذبها، لذلك أريده أن يبتعد عن حياتي، حاولت توصيل مشاعري ومفاهيمي بكلمات بسيطة وواضحة حتى لا يقع سوء فهم، لم أفلح، أريده أن يفهم كيف اختلطت في داخلي مشاعر الحياة الحقيقية كما أراها وكما أريدها، ماذا أفعل؟ ليس باليد

حيلة، هذا أسوأ ما يتركه الاحتلال في النفوس، الحب والكراهية، الفرح والحزن، الوفاء والغدر.

– لقد فهمت أنكما متفاهمان تقريباً.

–حين أفكر فيه بطريقة جدية، أجده يبتعد، ينتظر مني أن أناديه، أن أوافقه على ما يبدي من عرض، لكن حين أغمض عينيي لأعطيه فرصة للتقدم، يقفز الطيف المتأهب دوماً للمثول بين يدي من وهج العيون. بقوة العارف يقرر متى يبدأ الصراع وكيف ينهيه. يتحدى بجرأة رغبتي التي تملأ وجداني في الموت، يؤكد لي أنها رغبة قديمة ليس إلا، ففي نفسي رغبة تعادلها، أو ربما أقوى منها، في إنعاش قلبي ودفعي للحياة مرة أخرى، لاستعادة النبض مع سامي من جديد، لاسترجاع الألوان، كل الألوان، حتى لون الحب الحقيقي، يسخر من قولي أنني أصبحت أعتبره ترفاً لا يستحق العناء في أيام مبرمجة مرعوبة وعجولة.

– لا ترهقي نفسك بالتفكير بهذا الشكل المؤلم، يبدو أنك تحبين الاثنين. قومي للنوم الآن واستريحي، ستصلين إلى طريق الصواب. أستطيع أن أقول بكل أمانة "إن الحي أبقى من الميت" صدقيني من الصعب القبول بأن يصرع إنسان ميت إنساناً حياً، صعب أن يتغلب الموت على الحياة قبل الأوان.

جاء الصباح وهي جالسة على المقعد ذاته لا تعرف هل غفت أم لا ولكن الصور مازالت ماثلة في عقلها بكل وضوح، حملتها بين جفونها

إلى العمل، شاغلتها طوال ساعات العمل وأرهقتها، لكنها أصرت على الاستمرار حتى نهاية الدوام.

كان سامي يلاحقها بنظراته من بعيد طوال اليوم، لم يقترب، فقد وعدته بأن تخبره بقرارها حين تتوصل إليه، ورجته ألا يسألها أو يستعجلها في الجواب. لقد كان في نيته احترام رغبتها رغم معاناتها طوال ساعات العمل، ولكن حين وجدها تسير باتجاه الحدود حتى تكاد تصل إلى الأسلاك الفاصلة، جلست على التراب ترنو إلى البعيد ودمعة جامدة تقف على الجفن الكليل. ترك عمله وأسرع باللحاق بها حاملاً "ترمس" الشاي الساخن

وقف أمامها ساكناً ماداً يده بالشراب الساخن، اخترق بصمته شفافية صمتها الحزين، انفرجت أساريرها رغماً عنها رداً على ابتسامته، تناولت من يده غطاء الترمس المملوء يتصاعد منه بخار حار أحست بحاجتها الماسة له، رشفته بتمهل فأنعشها، تناوله سامي من يدها وسكب فيه من جديد شيئاً لنفسه وشربه دفعة واحدة، التقت اليدان حول المشروب الساخن، قال باسماً:

– وهكذا لن يتسنى لأحدنا الابتعاد عن الآخر.

قالت وعنقها مشرّعاً نحو السماء:

– لا تفرح، فقلقي معد، وأنا صعبة المراس.

أجاب وقد استغرقته المحبة:

– أولم تقولي أنني إنسان متفوق؟

قالت بجدية:

– لا.. لم أقل ذلك، بل قلت، أنا وأنت قدرنا التحليق عالياً، قدرنا الترفع عن هوام الحياة.

وميض الحب يصلها مع الكلمات:

– رغم كل الصخب في وجهك وصوتك فإن عينيك هادئتان، فكما أراهما الآن تتحديان الفضاء الواسع رأيتهما ناعستين بعذوبة في ضوء القمر.

قالت بصدق:

– وحدك من حرك الركود بمهارة وبمشاعر دافئة أخافتني.

رد ببطء:

–ولماذا أخافتك.. أ لأنها حقيقية؟ أريد جواباً شافياً، لا يوجد في الدنيا إحساس أجمل وأرق من إحساسك على الرغم من أنك كثيراً ما تعبيرين عنه بروح التحدي، أحس بك حين تحاولين التغلب على معاناتك، وعلى شعور مرير فرضته بنفسك على نفسك. أرجوك أطلقي سراح إحساسك المرهف من القمقم، خلصيه من قيوده، لم يعد له من مهمة سوى مقاومة صحوة الحياة فيك.

حاولت الكلام فلم تجد ما تقوله سوى أن تبوح بما أرقها ليلة أمس، تاهت وراء إحصاء عدد السنين، جلس أمامها على الأرض يستمع ويتعلم معنى أن يكون الإنسان إنساناً:

ذلك اليوم بعيد، بعيد جداً، ولكنه كان بداية طريق الآلام الطويل، كأنني أستعيد الأصوات من الأثير، أسمع صوت أب أرهقته السنون، وأذلته وطأة الاحتلال والعجز، يقول بصوت فيه خوف ولكن لا يخلو من حماسة:

– لكنك بنت صغيرة لم تتعد التاسعة عشرة بعد، في أول مواجهة حقيقية ستخسرين حريتك.

جاءه صوتها، صوت ابنته، المتطاولة فوق السنين والخوف:

– أتقول حريتي يا أبي؟ أين هي هذه الحرية ؟ ومع ذلك اطمئن فأحمد معي، وهو الذي اختارني للمهمة، سأكون مجرد همزة وصل بينه وبين الرفاق.

كادت عيناه تقفزان من محجريهما ومع ذلك تجلد وقال بانكسار:

– أخاف عليك ..أنت بنت.

ابتلعت ريقي لأغالب دموعي، أحسست وقتها كأنني طائر زينة يقصون أجنحته ليتمتعوا بمنظره وشجونه، غير مبالين بفقدانه حريته وهي أعز ما يملك. أجبته ساهمة:

– لكنهم يقتلوننا جماعات يا أبي دون التفريق بين البنت والولد.

كنت على يقين يا سامي أن خلف هدوئه إصراراً، ووراء الأمر بالحذر دفعة شجاعة، عندها رفعت عيني إلى الحائط العتيق الكالح حيث تصلب عليه صورة أبي بلباسه المرقط، معلقاً على كتفيه بارودته الخفيفة، تحكي قصة النضال والكفاح في معارك غير متكافئة، بجانب

الصورة علقت البارودة نفسها كآخر مكان شريف للاحتفاظ بها. كان أبي يتابع نظراتي، وبحركة لا شعورية ارتدت نظراته عن الحائط وانصبت على ساقه المصابة، فهمت مرماه كان تشجيعاً أكثر مما هو تحذير.

تنهدت بأسى، رفعت أصابعها تزيح دمعة جرت على خدها، فعفرت وجهها بالتراب الذي كانت تعبث، ودخل بعض منه إلى عينها، تناول منديلاً ورقياً من جيبه ومسح عينها ثم علق قائلاً:

– أقرأ على شفتيك صرخة، فلماذا لا تطلقينها لتنفسي عما يؤلمك؟ بالمناسبة لقد أصبحت قادراً بشكل مذهل على قراءة كل خلجاتك حتى هذه الصرخة المكتومة.

لم تتجاوب مع دعابته بل تنهدت قائلة :

– ما من أحد يستطيع أن يفهم صرخة الوليد، أهي صرخة فرح للخروج من المأزق؟ أم صرخة الخوف من ولوجه إلى مأزق جديد؟

تتذكر أمامه موقفاً أليما في طفولتها، انتزعتهم من أحلام الطفولة الغارقة في دفء وأمان صرخة أمها وهي تشق سكون الليل حين عاد الرفاق حاملين أبيها مضرجاً بدمائه وعظام ساقه مهشمة، بعد غياب عدة أيام، ذهب ليشارك رفاق الكفاح إضراباً ضد المحتل وتعسّفه. انتقلت فجأة لتروي له أحداث اليوم الأول لها في التنظيم الفدائي، ذهبت إليه بعد إلحاح من إحدى صديقاتها الملتزمات، دخلت المكان وأفكارها لا تتعدى هم ساق أبيها المعوقة كتجربة مريرة عاشتها، وأصغت بهدوء أولاً ثم بانفعال متزايد إلى الروايات التي تحكي عن الوطن وآلامه والظلم

والاضطهاد المفروض من المحتل، وعن استسلام بعض الأهالي في الداخل وتهاون الأهالي في المهجر.

– خرجت بعد ساعات فقط إنسانة أخرى، كأنني خلقت من جديد، خلقت من أجل مهام محددة، أقسمت على أن أمشي كل الطريق حتى النصر أو الموت، حتى إن بقيت بدون ساقي الاثنتين. بعد القسم قال المسئول عن تدريبي لربطي نهائياً بالأرض المسلوبة:

– أعرف أنك ابنة أحد المناضلين القدامى، أود من كل قلبي أن أرحب بك وأطمئنك أن عملنا منظم وأنه حركة شعبية تجمع الأطفال قبل الكبار .

منذ ذلك اليوم صرت أقوم بالعمل ضمن كوادر الاستطلاع التي كانت مهمتها جمع المعلومات، أثناء ذلك تعرفت على مناضل جديد عرفتني به رفيقتي ذاتها باسم المناضل عاطف. خرجنا معاً في مهمات عديدة، كان يعود وجعبته مليئة بمعلومات أكثر صدقاً ودقة من الجميع، كنت دائماً أمتدح طريقته في العمل وتفانيه إلى درجة تعريض نفسه للخطر مرات ومرات دون أن يهاب، فنال ثقة الجميع.

ذات ليلة قبض على أحمد وأخيه التوأم، وأحمد أهم أعضاء التنظيم والرئيس المباشر لي ولعاطف، وهناك كانت أول صدمة حقيقية أصاب بها، فقد كان عاطف مجنداً إسرائيلياً، يهودياً من أصل عربي، مدسوساً علينا فأطاح بالرأس منا. تعاطفت جداً مع أحمد أثناء فترة الاعتقال، ولم يخرج منه إلا بعد موت أخيه التوأم تحت التعذيب، فكان خروجه بمثابة

فرحة للأهل أنستهم المطالبة بحقهم في ابنهم الثاني، رغم كل فنون التعذيب والإهانات وموت أخيه لم يضعف، بل خرج أشد تحدياً وإصراراً على مواصلة النضال.

بعد ذلك التاريخ ارتبط كل منا بالآخر بشكل وثيق دون اتفاق أو تمهيد، بدا ارتباطنا طبيعياً ووشيكاً كأننا متحابان منذ خلقنا، مهما قلت عنه لا يمكن أن أفيه حقه كان فعلاً متفرداً.

كان سامي يستمع ويرنو إليها بإعجاب يتزايد يوماً بعد يوم، اقترب كالطيف الجميل، وهمس كمن يبوح بخصوصية شديدة. قال:

– التفرد ليس عملاً معجزاً، إنه حالة خاصة، قد يخلقها موقف إنساني ما، وهذا شيء حقيقي وطبيعي، لكن للحياة مواقف كثيرة، وللموقف الواحد وجوهاً عديدة. مهما اختلف الناس في فن التعامل مع كل موقف من المواقف، تلتقي كلها في النهايات إذا كان الهدف واحداً، كطلب الحقيقة مثلاً، لا يقل موقف عن موقف آخر قيمة وعظمة، إذا كان نضالاً من أجل الأرض.

استغربت كلامه. الحياة ليست مجرد رحلة بين موت وحياة، إنها أيام أخرى غير التي تعنيها كلماته، أيام قاسية، غير مفهومة، الحقيقة زيفت، والجوهر فتت، الجميع يعمل بشراسة لابتداع وسائل الدمار المعنوي والمادي فكاد يصبح هو الحقيقة.

تابعت كلامها لسامي قائلة:

– ماذا لو انك رأيت سمحون ذلك المجند المراهق الذي عايشناه شهوراً طويلة وناديناه بالأخ عاطف وهو يضغط بحذائه على رقبة أحمد مبتسماً وهو يصيح " لا يسعدني شيء في الدنيا قدر أن أرى عربياً ميتاً تحت حذائي" فأتخلى بدوري عن كبريائي أمام وجه أحمد الكامد المزرق، واندفع نحوه متوسلة أن يتركه، فيدفعني وهو يشتمني بأقذع الألفاظ، كان أحمد ينتفض لسماعها أكثر من وجوده تحت ضغط الحذاء العسكري الماجن، يمد يده بوهن المختنق ليغرز أظافره في ساق المجند المغرور، فتسقط يداه بلا حول ولا قوة. أعاود المحاولة لإبعاده وبصوت مخنوق أقول "حرام ستقتله" يدفعني وهو يعيد الصياح بابتهاج سادي مخيف "لا أشفق عليكم، لأنه لا يجوز الإشفاق على الأعداء" ثم يبدأ في رفسه بقدمه الأخرى.

ظننت أن أحمد قد غاب عن الوعي حتى سمعت صوتاً يصرخ قائلاً بالعبرية "هل جننت لقد مات؟" ، فيقهقه الفتى الأحمق قائلاً "لا يفهم هؤلاء الحثالة لغة أخرى" صمت الجميع، حتى الطبيعة أظلمت وخرست وهي شاهدة على موته.

مات أحمد أمام عيني، لكن موته لم يعد القضية بالنسبة إليّ، بل الطريقة المرعبة التي مات بها، كانت بشعة والسبب أبشع، هل المقاومة من أجل الوطن تهمة جائرة. قفزت إلى المجند وفقأت عينه بثانية واحدة وألقيت إليهم بنفسي وكأسد جريح استرحت.

لم أحس بنفسي إلا وأنا بين ثلاث نساء يسقنني عبر ممر طويل مؤد إلى الزنازين، كنت بينهم كالمنومة، لا بل منتشية، أسير بخطى عمياء، تنهرني مجندة جميلة كي أسرع، تصرخ أخرى باشمئزاز، انظر إليها ببرود، تلتقي نظراتي مع الثالثة كانت اقرب إلى الرجل منها للمرأة، أرى انفعالها بوضوح نظرة غريبة لم أعتدها من امرأة، نظرات شاذة تتوعدني بها، إلى جانب كره يتجسد في الفم والعينين، فأتعجب كم يغير الكره المعالم، حتى تلك الجميلة من بينهن، كان وجهها يتبدل مع كل نظرة تلقيها نحوي، قالت بقسوة " يجب أن نكون قساة معكم، هكذا تأمرنا ديانتنا" بعد التعذيب والإذلال، أدركت، أنني ولفترة طويلة، أو ربما عمري الباقي كله، لن أقدر على الحب. سؤال مهم ما زال يطن في رأسي، هل هناك ديانة سماوية تأمر بالكراهية والقسوة؟ وكيف سيسكن الكره إلى جانب كره أشد سواداً من جناح الغراب؟ لست أدري؟

قال مواسياً:

– هيا بنا، يجب أن تعودي إلى البيت فلقد تأخر الوقت، أرجوك لا تنسي أن للحياة وجوهاً ثابتة لا تتغير، الحق والخير والجمال جوهر الوجود وكل ما عدا ذلك طارئ وسيزول، لا شيء يحيي النفوس مثل الحب إنه كل ذلك.

قامت تمشي إلى جانبه، كأن القرار نبت فجأة في رأسها:

– لا أريد العودة إلى التيه مرة أخرى، لا أريد لنفسي الضياع من جديد. العودة معك تعني التخلّي عن أعز أمانيّ، قد أختار ذلك من

أجلك، ولكني سأخون نفسي، سأدفعها لأن تعيش حياة لا تعنيني، وليس ذلك لأن ما أتمناه صعب المنال، ولا كونه فرض عليّ بالقوة مثل حرماني من أحمد. لا لن أقبل مثل هذا، لكنني أعي الحقيقة تماماً، أعرف أنه لم يعد عندي قدرة على البسالة والشجاعة كالسابق، فقد نخرت عظامي السجون، وأنني مثل كل فرد فلسطيني في الداخل والخارج نباع ونشترى في سوق نخاسي السياسة. على الرغم من ذلك لن أتخلى عن إصراري على العودة إلى أرضي، يجب أن أموت بداخلها.

قال ملتاعاً:

– يجب أن تنسي، نحن كما قلت بلا حيلة، والحياة لا يخفف وطأتها إلا التعود على ما تسمح به، ألم تسمعي بقانون يقول" اجعل من الليمون الحامض شراباً حلو المذاق"؟ هذا ما أدعوك إليه، مارسي الفرح يصير عادة، تعلمي التجاوز يصير سلوكاً، هذا أيضاً تميز، يشعرك بالقوة والقدرة، تغلبي على الحياة بأن تلوذي في عمقها، أعني أن تتوصلي للإحساس بنبض الحياة، وتشاركي في خلقه، كيف نستغني عن نبض الحياة طالما بقي في العمر بقية؟

مرّا في طريق عودتهما عبر الطابق الأرضي للبناء حيث يعملان، كان معتماً فأضاء سامي المكان بإحراق عود ثقاب تلو الآخر، في الضوء الشحيح سارا دون تعثر، رأى خلجات الحياة على وجهها فاستبشر خيراً، لقد اقتنعت أخيراً وسترمي كل معاناتها وراء ظهرها وتعود وتكمل المشوار معه.

قبل نهاية الممر الطويل فوجئ بها تتوقف ثم تلملم عواطفها المبعثرة وأطراف سترتها، وتستدير عائدة بسرعة من حيث أتت، تركته واقفاً مثل تمثال حب يائس طاشت سهامه عن الهدف المنشود، رفع يديه الاثنتين للسماء ملتاعاً، فبدا عن بعد وكأنه على وشك الطيران إن لم ترجع إليه. عند ذلك البعد توقفت، وقالت بصوت كالعويل، لا تعرف إن كان سمعه أم لم يسمعه" يا للعقم العاطفي البشري كم هو مخيف، لن أستطيع، صدقني لن أستطيع"

في جريها نحو الحدود عادت روحاً خفيفة متحررة من كل القيود، ألغت الألف يوم من عقلها، لم تغب عن وطنها سوى بجسدها، ستسرد للجميع وبالتفاصيل كيف كان كل منهم يقضي يومه خلال فترة غيابها. غابت مكرهة وعادت مختارة.

بلادة ممتعة غزت جسدها وعقلها في لحظة الوصول، أجمل شعور عاشته منذ أن غادرت وطنها، جدت في السير والبشر يطفح على محيا وجهها الجميل، تحلّق وراء حلم يراودها في الصحو كما في المنام، أن لا تنسى القسم، أن لا تموت ولا تحيا إلا على أرضها. انبطحت أرضاً، تسللت زاحفة تحت السلك الشائك واخترقت الخط المحظور، صارت في بلادها، لم تنفض ثيابها المعفرة من تراب الوطن، واصلت السير دون تردد، تقدم حرس الحدود شاهري السلاح، لم تخف ولم تحجم استمرت في التقدم.

ركعت مرة أخرى وسجدت في صلاة طويلة، قبلت الأرض، كانت تعرف أنهم يراقبونها، وبدورها بطرف خفي كانت تراقبهم، أدركت أنهم لم يجدوا في شخصها ما يخيف، بل لمعت أعينهم حين تبينوها امرأة. عيون كثيرة تحدق بها من كل جانب، رفعت جذعها بتمهل، بينما بقيت جالسة على ركبتيها، اقتربوا، لن يصدق أحد أنها قادمة للموت مثل العروس، تركت نظراتهم تنهش جلدها، ابتسمت لا أحد يصدق أنها مناضلة جاءت من الجنة لتدخل النار بقدميها إما قاتلة أو قتيلة.

لا.. ليس هناك من جديد، ما زالت لا تملك شيئاً تخاف عليه، لا أمل يتخلق في العينين اليائستين، ولا نبض في القلب، ولا وعد بغد أفضل، كل أنواع التنكيل سواء. ماذا سيقتلون غير الأيام السوداء التي تعيشها؟ وقفت ببطء، اقتربوا منها أكثر وأكثر، تجاهلتهم وانحنت على الأرض مرة أخرى وسجدت وقبلت التراب، ثم وقفت فجأة واختطفت سلاح أقربهم إليها، وفتحت نيران ذخيرته عليهم، ثم لم تعد تدري بشئ.

قرأ سامي صباح اليوم التالي خبراً منشوراً على الصفحة الأولى"فدائية عبرت الحدود ليلة أمس وقامت بمباغتة ثلة من الجنود على الحدود الفاصلة بين وطنها والمكان الذي أقامت فيه فترة إبعادها، قتلت أربعة منهم وجراح الآخرين خطيرة، واستشهدت على تراب وطنها" ابتسم ابتسامة حزينة لكنها مليئة بالفخر، وهمس مضيفاً للخبر حقيقة أخرى" كما أرادت".

عندما يموت الزمان

فتحت عينيها وأجالتهما فيما حولها دقائق وهي على هدوئها أو جمودها، استوعب عقلها أنها في مكان لا تعرفه، جلست بفزع، مستشفى؟ هذه الغرفة البيضاء النظيفة الكاملة التجهيزات تقول إنها في مستشفى، وخاص أيضاً، أمامها نافذة مفتوحة يدخل من خلالها هواء بارد يداعب الستارة فتطير عالياً ثم تهبط. بجانب النافذة يجلس رجل على أحد المقعدين الوحيدين في الغرفة واضعاً رأسه على كفيه، تحرك الآخر الواقف بجانبه متقدماً نحوها وابتسامة عريضة تكسو وجهه، لم تنتظر كلامه بل بادرت بالسؤال فخرج صوتها واهناً خائفاً:

- كأنني في مستشفى، اللون الأبيض كان دائماً يذكرني بالمرض.

اقترب أكثر ماداً يده للسلام وما زالت ابتسامته على اتساعها:

– صحيح ما تقولين، أنت في مستشفى، وأنا الدكتور سالم المشرف على علاجك، لكن أعترض على التهمة التي ألصقتها باللون الأبيض، أليس هو لون الفرح أيضاً؟

قالت بهدوء حزين:

– كنت مثلك أعتقد ذلك، لكن فستان زفافي لم يحتمل، لقد اصفر وشاخ قبل عودة العريس.

قال مغيراً مجرى الحديث:

– أعتقد أن نوبة الصداع زالت، أليس كذلك؟

– بلى، أنا بألف خير.

تحركت لتنزل من السرير، التفت الطبيب إلى الممرضة الواقفة خلفه مشيراً لها بالتقدم نحو المريضة ففعلت، بينما واصل كلامه:

– أمل، الممرضة التي ستساعدك وتوفر لك الراحة، لكن أنصحك بألا تستعجلي الأمور، فأنت بحاجة للراحة والعلاج، أخشى أن تعود نوبة الإغماء التي تعرضت لها منذ يومين.

قاطعته دهشة:

– وهل أنا هنا منذ يومين؟ من أحضرني إلى هنا؟

أشار الطبيب ناحية الرجل المطأطئ رأسه:

– زوجك .. بالمناسبة إنه يحبك كثيراً، لم يترك المكان منذ أحضرك، على كل حال سنجري بعض التحاليل السريعة والأشعة المطلوبة ثم نرى، ولكن لا تبذلي أي جهد قبل ذلك.

اقترب منها الرجل الآخر، بخطوات بطيئة حذرة وقال بهمس:

– حنان.. يجب أن تستمعي إلى نصائح الطبيب لتعودي لنا بسرعة.

قالت وقد عقدت جبينها استغراباً:

– حنان ؟ أهلاً عم سليمان، لا بد أنك من أحضرني إلى هذه المستشفى المكلف، ولكن لا عليك، سأسدد حسابي بعد عودتي إلى العمل في المصنع، أشكرك جداً على كل حال. لكن أخبروني هل انتهى كل شيء؟ أعني هل انتهت الحرب؟

انقلبت سحنة الرجل، وبدا الفزع واضحاً على وجهه، لم يفت ذلك على الطبيب الذي كان واقفاً بينهما فقال للمريضة:

– ماذا يا حنان، هل نسيت زوجك؟ ثم عن أي حرب تتحدثين؟

جلست في سريرها ملقية برأسها بين كفيها تفكر ثم قالت مؤكدة:

– أنا لست حنان، اسمي حياة، والسيد سليمان ليس زوجي بل هو صاحب المصنع الذي أعمل فيه منذ سنوات، والحرب التي سألتكم عنها هي الحرب المسماة بحرب الغفران.

أمسك الرجل بيد الطبيب وسحبه إلى إحدى زوايا الغرفة بعيداً عن المريضة، وقال بهمس مريب:

– إنها تعاني هذه الحالة منذ مدة، تنسى اسمها وتنسى من أنا، وتنسى حتى ولديها.

لم يصدق الطبيب ما سمع، ولكن قبل أن يرد عاد إليها وسألها:

– في أي يوم نحن وفي أي شهر؟

أجهدت فكرها لتتذكر:

– لا أعرف أي يوم نحن، لكن نحن في شهر أكتوبر، لذلك سألت هل انتهت الحرب؟

ربت على كتفها بتعاطف، أعاد وصيته بالا تجهد نفسها ولا فكرها، ثم خرج ولحق به الزوج مسرعاً مغادراً المكان. استوقفه الطبيب قائلاً:

– مهلاً سيد سليمان، أريد التحدث إليك.

استسلم الرجل وقال:

– كما تشاء، ولكن لا بد من السرعة فالطفلان بانتظاري.

فتح الطبيب ملفاً أمامه وباشر في تدوين بعض المعلومات، سأل الرجل:

– منذ متى بدأ ظهور هذه الأعراض على زوجتك؟

– منذ شهور.

– من أجل الشفاء السريع لها أريدك أن تحدثني عن كل شيء بالتفصيل، ربما هناك شيء تعتقد أنه غير مهم ويكون مفتاح علاجها.

– أليس من الأفضل أن تسألني وأنا أجيب؟

– حسناً ..كيف بدأ الأمر ؟

_ بدأ الأمر ببعض توتر وعزوف عن الحياة، اعتبرت ذلك أموراً طبيعية نظراً للظروف العامة التي نحياها.

_ هل هي إنسانة عصبية بطبيعتها؟

- أبداً بل هي متزنة هادئة إلى أبعد حد.

- إذن ما الذي جدّ عليها فأفقدها اتزانها؟ أعني ما هي الظروف التي تتحدث عنها؟

- بدأ التغيير إثر مشاهدتها التلفزيون وقد كان يبث على الهواء خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، وجدتها تصرخ فجأة " يا رب.. مرة أخرى دمار، موت وهجرة، دموع ووداع، وأسلحة صدئة؟ يا إلهي كل هؤلاء ذاهبون دون عودة؟ نعم نعم دون عودة." حاولت أن تناديني فلم تتذكر اسمي.

- إذا كانت امرأتك بكامل عقلها، وهذا ما سنتحقق منه، فإن في الأمر سراً كبيراً. يمكنك أن تذهب الآن.

لم يقتنع الدكتور سالم بأن حنان مصابة بلوثة أو أن بها خلل عصبي، بل رجح أن الأمر أكبر من ذلك. جمع كل الأوراق الخاصة بها، وذهب لاستشارة اختصاصيين آخرين، فكلف مدير المستشفى ثلاثة منهم بالإشراف على علاجها، كان من بينهم طبيب أمراض نفسيه وطبيب أمراض عقلية والدكتور سالم .

دخل الدكتور سالم إلى غرفة حنان فوجدها جالسة على أحد المقاعد بملابس المرضى، أخبرها بأمر الطبيبين الآخرين، قالت بتعجب:

- لست مريضة إلى هذا الحد، هل أصبح الصداع مشكلة تحتاج إلى كل هؤلاء الأطباء، ثم إنني فقيرة ولا أستطيع تسديد نفقة هذا العلاج،

حتى وإن كنت مريضة فعلاً كما تعتقد، أريد الخروج من هنا حالاً، أرجوك يا دكتور.

– كما تشائين، ولكن ما يضيرك لو تركتهم يجرون الكشف ودون تكاليف؟

– أوافق ولكن ليس قبل أن أبدل ثيابي، سأغادر بعد ذلك مباشرة.

– سأخرج دقائق وأعود معهما فجهزي نفسك بسرعة.

– لكنني لم أجد ثيابي في أي مكان .

تقدم وفتح الخزانة الموجودة بجانب السرير، وجد فيها ثياباً معلقة بداخلها بشكل مرتب، حملها وأومأ لها ضاحكاً أن تستعد بسرعة، ومشى نحو باب الخروج، وقبل وصوله إلى الباب سمعها تقول شيئاً أدهشه:

– دكتور سالم هذه ليست ثيابي.

– ولكنك أتيت بها، وأنا الذي استقبلتك في تلك الليلة .

– ماذا تقول؟ لم أكن أملك مثل هذه الثياب الفاخرة في أي يوم من أيام حياتي، لقد أخبرتك بأنني عاملة في مصنع عند الرجل الذي لقبته بزوجي، بينما هو صاحب المصنع العم سليمان.

لم يستطع إخفاء الذهول الذي بدا واضحاً على وجهه، خرج مسرعاً وعاد ومعه زميلاه وطلب منها أن تهدأ لعل في الأمر سوء فهم، وتجيب عن كل الأسئلة التي يطرحها عليها أي منهما، جلس صامتاً تهزه الحيرة من أعماق نفسه، إن كان ما تقوله حنان صحيحاً فإن في الأمر عملية تزوير في أوراق رسمية، فقد قرأ اسمها حنان لبنانية الجنسية زوجة

سليمان علم الدين وأم لطفلين أيضاً من تكون إذن؟ حين تنبه وجدها تسرد حوادث مضى عليها ما يقارب ثماني سنوات على الأقل.

– شباب يصرخون، زوجات وأمهات يندبن، يبكين أو يزغردن، كنت أحاول أن أتحرك وأصل إلى المكان المتفق عليه مع الرفاق، ولكن الازدحام كان يعوقني، حتى الطبيعة شاركت، السماء والبحر والأرض والهواء، كل شيء كان مشتركاً في إحكام الدائرة حول نفسي .

– إلى أين كنت تريدين الذهاب في ذلك اليوم؟

– تركت البيت في الصباح متوجهة إلى المصنع، كان عليّ أن أقوم ببعض الترتيبات اللازمة قبل أن يستدعيني أبو الأدهم لمهمة أخرى في هذا الجو المشحون، حين دخلت المصنع لم أجد أحداً غير عم سليمان، كان واقفاً يرتجف مع كل صوت رصاصة أو قصف أو اختراق جوي، ألقيت عليه تحية الصباح فانفجر كأنه قنبلة موقوتة يصرخ بصوت عال يكاد يمزق رئتيه وحنجرته قائلاً:

– لعنة الله على الفلسطينيين والساعة التي جاءوا بها إلى البلد، لم يجلبوا لنا إلا المصائب، الحالة صارت زفت بسبب الحرب، خربوا بيوتنا، توقف حالنا، اسمعي، يجب أن تعودي في المساء لتسليم هذه البضاعة التي ستحضّرينها الآن.

قمت بعملي بسرعة مذهلة أدهشته، أخبرته أثناء خروجي أنني على موعد، وسأعود في المساء لمقابلة العميل وتسليمه بضاعته. أمام باب

المصنع الرئيسي رأيت رسول أبي الأدهم ينتظرني خارجاً، فسرت بجانبه دون كلام.

- لحظة من فضلك، من هو أبو الأدهم؟ وما هي صلتك به؟

- أبو الأدهم يا له من رجل، كان قائداً بكل معنى الكلمة.

- هل تعنين أنك كنت منظمة تحت قيادته؟

- أبداً ..لقد تعرفت عليه يوم دخلت محلاً صغيراً لبيع أسلحة خفيفة، أمسكت بقطعة سلاح رأيتها أمامي وأخذت أقلبها بين بيدي، كان صاحب المحل يرقبني منتظراً إشارتي لتلبية طلبي، تقدم مني رجل وتدخل بشكل مباشر:

- هل الأخت فلسطينية؟

- نعم، ولكن لماذا تسأل؟

- إن هذه التي اخترتها مجرد لعب أطفال.

التفت وسألت صاحب المحل بسذاجة:

- هل ما يقوله الأخ حقيقة؟ أريد سلاحاً بسيطاً لكن حقيقياً.

رد الرجل ذاته قبل صاحب المحل :

- الأعمال التي تحتاج لسلاح غالباً ما تتطلب أكبر من هذه.

قلت بسرعة:

- أتقصد أنها حقيقية لكن خفيفة؟ آه ..هذا ما أردته، بيتي منعزل في الجبل وأعيش فيه وحيدة، لذلك أريد الدفاع عن نفسي.

فهم وبدا ممتعضاً فقال:

– الدفاع عن أمور الحياة بمعناها المتعارف عليه لا يحتاج إلى السلاح. لكن الدفاع عن الحياة بكل معانيها المشكلة، الحياة هي التي تحتاج إلى دفاع طويل مدروس وحاسم، أم أن مثل هذه الأمور لم تأخذ بعد حيّزاً من اهتمامك؟

تفرست في وجهه خائفة وسألته:

– لكن من أنت؟ ولماذا تحقق معي بهذا الشكل؟ الأحوال غير آمنة وأنا أقيم وحدي، وأردت الاحتراس ليس إلا. ماذا في ذلك؟.

– ظننتك تريدين الانخراط في صفوف المقاومة الشعبية أو المدنية في هذه الظروف الشائكة التي تتكلمين عنها، الإنسان الفلسطيني بات مستهدفاً حتى وإن كان في سابع أرض، هل يجب أن تصابي في الصميم وتفقدي أحداً ما حتى تقدري حجم المعاناة؟

– لقد تعرضت لقسوة أكبر مما تتخيل، فقدت أبويّ في حرب النكبة، وفقدت خطيبي في حرب النكسة، وماتت خالتي أمه حسرة عليه، وبقيت وحدي بانتظار أي مصيبة ستسفر عنها هذه الحرب.

– ستسفر عن اقتلاع الإنسان الفلسطيني من جذوره،وقتل أحلامه، ألا ترغبين في مشاركة شرف الدفاع عنه؟

هكذا تعرفت على أنبل رجل عرفته في حياتي، علمني ودربني ودفعني إلى الحياة، أصبحت فيما بعد أحس بقيمة وجودي وبسمو هدف الحياة التي أعيش بها ولها، شفى أحزاني ورد لي ما فقدت.

ألقت برأسها على مسند المقعد مبهورة الأنفاس كأنها تتكلم عن لحظة انتهت لتوها، أخرجها صوت الدكتور سالم من أفكارها متسائلاً:

– تبدين في منتهى العافية وأنت تتكلمين، ما الذي جرى خلال الدقائق التي تركتك فيها يا حنان؟

– أرجوك يا دكتور أن تصدقني أنا حياة.

قال الطبيب النفسي:

– من تكون حنان إذن؟

قالت بسرعة مطلقة :

– حنان كانت أعزّ صديقة لي، تعرفت عليها يوم التحقت معها بالعمل في مصنع العم سليمان. لقد استشهدت إثر عملية انتحارية قامت بها في الأرض المحتلة انتقاماً لمقتل زوجها، آه كم بكيتها على الرغم من أنني غبطتها إذ استطاعت أن تقوم بما لم أستطع القيام به بعد غياب ثائر.

– من هو ثائر؟

– ثائر كان ابن خالتي وخطيبي، تركنا أنا وأمه وذهب ليقاتل ويعيد لنا الحرية المفقودة. كنا سنتزوج في نهاية شهر حزيران لكن تأجل موعدنا بسبب الحرب فذهب مع كثيرين. بعد ستة أيام انتهت الحرب، عاد الجنود بعد الخذلان، الأحياء منهم والأموات، لكنه لم يعد، ظننته خجل من النكسة التي أصابتنا، فانتظرت أن يعود بعد فترة، ولكن طال الانتظار ولم يعد، ولم يزل مفقوداً.

تشاور الأطباء الثلاثة همساً بينما قامت هي من جديد تبحث عن ثياب تناسب مقاسها من ملابس المستشفى لترتديها حين تغادر المستشفى، أعادها إليهم الدكتور سالم:

– حنان ..عفواً أقصد حياة، هل تستطيعين أن تصفي لنا حالتك في ذلك الوقت؟ هل وصلت إلى حد القنوط وكرهت نفسك وتمنيت الموت؟

– أ مازلت تعتقد أنني لا أتذكر دقائق حياتي لحظة بلحظة أو أنني لا أستطيع التعبير عنها؟ أنا في كامل وعيي، وأنا حاملة للشهادة الإعدادية. أولى المصائب كانت فقدان ثائر، وبعدها عدم اهتمام المسئولين لمعرفة مصيره، أوصلني ذلك إلى اليأس من الحياة التي نعيشها، عرفت أشياء كنت أحتاج دهراً كاملاً لمعرفتها، لكنني كنت أكبر كل يوم سنة، عرفت معنى جديداً لفقدان الهوية والانتماء لمكان خاص بي ولزمان أتحرك فيه وأبني لمن يأتي بعدي.

كانت مصيبة حنان كبيرة بفقدانها زوجها وهما مازالا في السنة الأولى من زواجهما، لكن الأمر كان يبدو لي أكثر هولاً وقد بقيت وحيدة بعد موت خالتي حزناً على ابنها، لم أكن أعرف إن كان ثائر ميتاً أم حياً، مات الزمن في عقلي، كان يعشق الحياة ثم توقف، ثم مات، لم يعد له أهمية تذكر. عشت زمني بانتظار أن تأتي نهايتي، كنت أحلم بأن تكون كنهاية حنان ولكنني لم أكن قد فقدت الأمل بعودة ثائر.

– كلميني عن حياتك .. عن عملك.

تفحصت الوجوه جميعاً ووجدت الارتياح يعلوها فاستراحت، وسألت بتلطف:

- لكن ما قصة عم سليمان، هل ادّعى أنني زوجته لأنه أحضرني إلى هنا وأراد أن يعطيني صفة ما لألقى العناية الكاملة متحملاً نفقات العلاج؟ ياله من رجل شهم، أليس كذلك؟

تلاقت نظرات الأطباء متسائلة فيما بينها، قال الطبيب النفسي:

- حياة دعي هذا الأمر إلى حينه، سوف نتكلم كثيراً حوله، ولكن نريد أن نصل إلى بعض التفاصيل لنعرف حقيقة ما ادّعاه سليمان، ثم أنه تاجر كبير وله اسمه ولا يجوز أن نتهم وندين دون يقين تام، هل فهمت؟

- كنت أعمل عنده في مصنع للجوارب بعد حصولي على الإعدادية رغم معارضة خالتي وثائر، لكنني وعدت ألا أهمل مواصلة تعليمي، في البداية لم أكن أعرف أي شيء عن صناعة الجوارب، فأوكل لي العم سليمان قسم المبيعات ثم جعلني أشرف على تغليف البضائع التي تصدر للخارج. كنت دائماً محط اهتمامه كأنني ابنته، كان يشعرني بقيمة ما أقوم به، ولا يبخل في مكافأتي بين حين وآخر إضافة لما كنت أكسبه وأعين به خالتي على تكاليف الحياة.

-هل أنت فلسطينية ملتزمة بالقضية؟

- بل أنا أكثر الناس إحساساً بالقضية. ولدت قبل النكبة بشهور، حين سقطت بلدتنا لم يغادر أحد من عائلتي البلد، هدموا بيتنا فوق

رؤوسنا، مات أبي وأمي وأخي، ونجوت بأعجوبة لأعيش هذه الأيام السوداء. فرت خالتي بابنها ثائر وبي كأنها تفر بأكبر غنيمة حرب، عشنا في بيت صغير متواضع، كهف لا تدخله الشمس ولا القمر في بطن الجبل، لم نختره بقدر ما القينا بأنفسنا إليه حالما بعدنا وشعرت خالتي بالأمان، عشنا سوياً سنوات طويلة، لم نفترق إلا مكرهين.

كثيراً ما شعرنا بالغربة والضياع ولكن الأحداث كانت تتوالى بسرعة مذهلة فتنسينا أنفسنا، لكنها كانت تعلمنا أيضاً، تنمّي فينا الإحساس بأننا عدة الغد القادم، كان الكبار يتركون الصغار يعيشون حياة طبيعية في ظل ظروفهم الراهنة، ولكن في أعماقهم كانوا يزرعون الصبر لانتظار يوم الفصل.

كنا نجد متسعاً لأحلامنا وآمالنا فنقهر اليأس. نما حلمنا وكبر في صدرينا أنا وثائر في لحظة غفل الزمن عنا لنتوج حبنا بارتباط أبدي بات وشيكاً، لكن تبدلت فرحتنا إلى وعد كاذب لن يجيء، عشت بعد ذلك في فراغ، فضاء بلا حدود.

قال الدكتور سالم وهو يغادر غرفتها مع زميليه:

– عليك بالراحة التامة اليوم، وغداً حين يأتي زوجك سنقوم باللازم.

– لا أذكر أنني تزوجت من أي كان. كيف أتزوج وأنا اعتبر نفسي زوجة لبطل شهيد مات دفاعاً عن أرضنا المسلوبة؟

ابتسم لها مشجعاً ومصدقاً فانفرجت أسارير وجهها، عادت إلى سريرها متفائلة، وما إن شعرت بجسدها المتعب يرتاح، حتى بدأت رحلة

الفكر فاستجابت. كم أكره الحرب.. لكن هذا الرجل، متى تزوجني؟ أعرف أنه صادق وأمين لا يكذب، لا بد أنه ادعى ذلك لسبب ما سأعرفه غداً. أين وجدني؟ لا أذكر إلا لحظات الرعب التي عشتها مع الجماعة كنا نتنقل بخفة حول متاريس سدت الطريق أمام المهاجمين، انهمرت القذائف وتطاير الرصاص من كل صوب، بقينا على تلك الحال حتى هبط الليل، رأيت على ضوء القذائف شخصاً يركض باتجاهنا حانياً ظهره متدارياً بالجدران، يقع ويقف وهو يلوح طالباً الأمان، ثم وقع على الأرض، قبل أن أتحقق مما إذا استطاع الوقوف ثانية أم لا كان الرجل الواقف إلى جواري يشب على قدميه ثم يصيح ويقع مضرجاً بالدماء، أشار لنا أبو الأدهم بألا نتحرك، تسمرنا في مكاننا مرهفي السمع إلى صوت الموت مع كل مقاتل يهوي أمامنا.

"أيها الرفاق..لقد وقعنا في كمين" هكذا صاح أبو الأدهم، كانوا فعلاً يتقدمون نحونا بقصد إبادتنا، استمرت القذائف واستمرت الأجساد تتهاوى أمامنا وحولنا. كنت أضغط على نفسي للصمود كي لا أصاب بالغثيان وأغيب عن الوعي، فجأة سطع ضوء في المكان، تناثرت الشظايا بعيداً عنا أرهبتنا، التفت إلى أبي الأدهم أستمد منه قوتي.

قال لي بسرعة:" اصمدي مهما حصل فأنا المقصود، ولكن يجب أن يدفعوا ثمني غالياً".

حين استدار وجدت الدم ينزف من جروح عديدة في جسده، ومع ذلك ظلت يده قابضة على سلاحه والأخرى ترمي قذيفة بعد أخرى، ينتزع

فتيلها بأسنانه ويقذفها إلى البعيد، اندفعت نحوه فأقصاني، وقفت مأخوذة، رأيت جماعة من العساكر تتقدم وتشير لنا بالتوقف، صدق أبو الأدهم، كانوا يريدونه هو، فقد أطلقوا النار على جميع أطرافه، هكذا يريدون لهذا الرمز ألا يموت ولا يحيى، يريدونه أن يبقى عاجزاً. حين أمسكت به ظننته ميتاً، كان متيبساً، تماماً مثل الشجرة المحترقة المتكئ عليها، انحنيت أكثر، ما زال قلبه يدق لكن ببطء، عيناه تشعان حماسة، وابتسامته الضعيفة كانت ممتلئة حياة، كانت ترقص على شفتيه، تمنيت أن يروها ليعرفوا كيف يكون الانتصار.

بعد عودة الهدوء تفقدنا الجميع، كان الرجل الذي سقط بجانبي هو هشام الشاب السوري الذي أخبرني همساً قبل ساعة من الزمن أنه كان مع ثائر في حرب حزيران، كنت أتمنى أن استمع إلى المزيد، ولكني أجلت ذلك حتى ننتهي مما كنا فيه، لم يمهلني القدر، مازال يعاندني، لا يريدني أن أعرف شيئاً عن ثائر. انحنيت فوقه كان يشبه ثائراً إلى حد كبير، هل يتشابه الأبطال إلى هذا الحد؟ احتضنت رأسه وبكيت كثيراً، بكيته وبكيت ثائر وبكيت أبا الأدهم، تحرك قليلاً فرحت بنجاته، لكنها كانت الخلجة الأخيرة، مات الشاب، وعلى الوجه الجميل العريس ابتسامة تشبه ابتسامة أبي الأدهم الساخرة من الحياة والجلادين والكلاب المسعورة.

في الصباح كانت تتحرك بكل همة ونشاط، لم تنم، لكنها كانت معافاة تماماً. عاد الدكتور سالم مع زميل آخر إلى الغرفة، توقفا دقائق

كل منهما ينتظر الآخر ليبدأ الكلام، ابتسمت مشجعة ضاحكة، فقال الدكتور النفسي:

– أرجو أن تحتفظي بهدوء أعصابك لأنني سأخبرك بشيء قاس لكن لا بد من ذلك. هناك ما يقارب عشر سنوات من عمرك لا تدرين عنها شيئاً.

– لا يهم.. طالما أنني لم أنس القديم لا أعرف كم مضى من الوقت ولا كيف، لكنك تقول عشر سنوات فليكن. أتذكر ذهاب ثائر إلى الحرب بأدق التفاصيل، كأنه حصل بالأمس. هل أحكي لكما شيئاً من ذلك؟

هز الطبيبان رأسهما وبقيا على صمتهما وحيرتهما. فاستأنفت كلامها:

– كانت الإذاعات العربية تهدر، تهدد، وتتوعد، ونحن صدقنا بسذاجة غريبة، قدمت خالتي ابنها وحبيبي كأعز ما نملك لواجب مقدس عاشت تحلم به، كانت أيام الحرب قليلة خاطفة انتهت قبل أن نسترد وعينا، لكن الأيام بعد ذلك صارت تمر بطيئة مملة، تصير شهوراً. لم يعد ثائر، تمزقت مشاعرنا أمام جنون الاشتياق واللوعة، تعصر قلوبنا الوحدة الثقيلة، أصبحنا في غربة حقيقية، الجميع يصب جام غضبه وفشله على رؤوسنا، ويعيروننا بأننا بعنا وطننا، وأتيناهم نحمل لهم المصائب، كنت وخالتي في عالم آخر، مرارة غربة حقيقية نستعذبها لأول مرة ونتمسك بها.

تكدست الأيام عام يسرق عاماً. دب اليأس في القلوب، فقدت الأيام معانيها والأماكن بهجتها، واظبنا على ارتياد أماكن لم نعرف لها طريقاً من قبل، نسأل عن الغائب ولا جواب، جواب وحيد: إنه مجهول المصير لا أحد يعرف عنه شيئاً، لم يرد اسمه بين القتلى أو الأسرى، كأنه نكرة وليس بطلاً، وليس أملاً ولا فرحة عمر، عجوزان إحداهما في عمر الزهور، والأخرى أمه، تلحان بالسؤال، إنه ميت حي، تعودان إثر كل بحث وتساؤل أكثر انكساراً، وتقعان في أحضان وحش شرس اسمه العجز. رأيت العجز واضحاً مثل الشمس مدسوساً في أجوبة المسؤولين حين نسأل عن ثائر، مدروساً وموضوعاً للتنفيذ تحت عدة بنود، لا يرونه، بل لا يريدون رؤيته، يتوارى خلف جدار سميك، كل يوم يصير أطول، سد وجه السماء، صار اسمه المستحيل.

ما زالت الإذاعات تتوعد وتتنصل وتعد، ولا تصدق العجز ولا الجدار الذي يبنى من أكاذيب، ولا يصدقون أنه المستحيل، ولا يعترفون أنه ميراث حرب خاطفة، قتلت الأمل في كثير من النفوس التي نعمت به لحظات، حين تركوهم يعتقدون بأنهم على أبواب فجر جديد لشعب وأرض و.. أشياء لا تعد ولا تحصى، ونزفت قلوب المستضعفين ذلاً وحسرة، فشلاً وإحباطاً.. مات الكلام.. كل الكلام، وانكسرت عقارب الساعات.

أصبح المكان الذي أعدته خالتي جنة لعرسنا خراباً، يضم أشلاء الغائب الملتصقة بأشلاء نفسي ونفس خالتي، ويضم فستان عرس أصبح

هو الآخر ذابلاً مصفراً متجعداً عجوزاً مثلي ورائحة الانتظار المرير تفوح منه. شيء واحد بقي زاهياً في مخيلتي هو الذكريات، تحرقني كل لحظة. ذات يوم كنت قد ارتديت فستان عرسي لتجربته بعد الانتهاء من حياكته، أردت أن يراه ثائر قبل رحيله، اعترضت خالتي، قالت وهي تحاول منعه:

- يجب ألا تراه قبل الزفاف فذلك شؤم.

دفعها مداعباً وألقى بكل ثقله على الباب الموصد وهو يتضاحك قائلاً:

- سأتحدى هذا التطير المرفوض وكل الخرافات البالية.

دخل وخالتي وراءه، ارتج قلبي لفزعها، فلم استطع التواصل مع فرحته الغامرة وزهوه بي، صاح:

- كما تخيلتك طول عمري أحلى عروس.

أستحضر الصورة، دائماً أشعر به يحتويني بين ذراعيه وأبادله شعوره، وخالتي تزغرد لتزيد من فرحة قلبه فأعطيه وجودي كله، ثم تتداعى الصورة وأتحسر، وأتذكر الحقيقة المرة، لقد ذهب ولن يعود.

كانت خالتي تقطع أوراق التقويم ورقة ورقة، لا أدري إن كانت تحصي أيام غيابه، أم كانت تعد أيامها الباقية. سكننا السأم وأصبحنا معاً ننتظر النهاية، نهاية نبضة الحياة التي صارت متخنة بالألم، صرنا نعريها للقاتل ليصوب مديته في مواطن ضعفنا فيطعننا، أو يرى مواطن الجراح فيوسعها ويزيد من نزيفها.

– هل كنت تملكين الحس الوطني ذاته الذي كان عند خالتك وثائر؟

– لا أعرف، في يوم وداعه تاهت نفسي عن نفسي، خالتي تطلق زغاريدها مملوءة بالشجن، وأنا يتنازعني عقلي الفخور به وبخالتي، وقلبي يهيب بي أن أدافع عن حياتي وحبي فأطاوعه وأتشبث بثائر وأصيح:

– لا تذهب، لا تتركني، التضحيات الفردية أوسمة وقتية سرعان ما تنسى.

يضمني إليه بقوة، فأشعر كأن سنوات عمره الغض قد تضاعفت من هول الأيام العصيبة التي تسقينا المرارة، قال بصوت هادئ:

– لكن لا بد منها، هي دائماً نواة شجرة عظيمة.

فأقاطعه بنشيج حارق:

– لكنها ضعيفة لا تقوى على حمل مسئولية كبيرة مثل هذه.

يضحك وهو يفلتني من بين ذراعيه القويتين ليحتضن أمه ويقول:

– إذن لنكن شوكة في حلوقهم.

أردد وأنا أعود للتعلق بعنقه:

– الموقف أكبر وبحاجة لسكين تغرز في القلب مباشرة وبأيدي الجميع.

نظرات خالتي وزغاريدها تشجعه وتشجعني، هذا يومه، فأنتزع نفسي بعيداً، وأرسم ابتسامة على وجهي فتنقل إليه بكائي، أشرب دمعي وألوح له قائلة " على بركة الله ".

لم أكن أعرف أنه سيأتي يوم النضوب وينفد منا كل شيء. الحب ازداد ثقلاً وأصبح هماً ووجعاً تحت ركام السنين الصبر تهلهل والحلم العاجز يجثم على الصدور. العقول ارتاحت وباحت بتبريرات واهية، قبلناها دون التفكير في علة ما حدث، وعرفت يومها أن الثمن الغالي يدفعه بعض ليقبضه بعض آخر.

كبرت مأساتي بعد موت خالتي، بقيت وحدي، وحدي مع الدنيا، وحدي مع نبضات ساعاتها الرتيبة ألدّ أعداء الإنسان المحزون، وحدي مع بركان أفكاري وهواجسي المتدفقة مثل حمم لا ترحم، متعلقة بحبال واهية في انتظار يائس، مسمرة بمكان فقد أبعاده، وزمان يتلكأ في مساره، أتعدى لحظة وأرميها خلفي، تتجدد أخرى فأندفع خلفها. أصير أنا وزماني ومكاني وصمتي الثائر شيئاً واحداً هو الوجود، وجود مشروط طويل الأمد، تنقضي لحظة فتولد لها أخت، أنجز خطوة فينبسط أمامي الطريق وتمتد الخطوات.

كنت أبحث عن ثائر في كل مكان وفي كل ساعة من ساعات الزمان، أردت أن أعرف إن كانت أشلاؤه قد تناثرت في فضاء هذا العالم الملوث فلم يستطع أحد التعرف عليه، أم هو أسير مهان بمكان ساد فيه الرعاع وقطّاع الطرق؟ وسط هذه المجهولات عشت أحاول أن أفهم كل الظواهر المحيطة بي، أتعلثم في الرد حين يسألني سائل عم أبحث؟ ييبس لساني، ألوك بصعوبة الكلمات التي تحمل كل الحقيقة، أبحث عن اللا شيء في اللا حدود.

– في فترة من هذه الفترات هل راودتك رغبة قوية بالموت كما فهمت؟

– نعم .. لم يكن الموت العادي ولكنه الموت الذي عرفني عليه ثائر.

– وهل لثائر تعريف للموت مختلف عما نعرف؟

– أكيد.. هكذا شرحه ذات مرة، في جلسة شاعرية موضوعها يخص الأرض والوطن والعودة المرجوة، وهذا كان يحدث عادة قبل انطلاقه لتنفيذ مهمة فقال:

– لن تتكسر هذه الحواجز إلا بالموت.

أجبت متنهدة بألم:

– تعني القتل أو الانتحار.

رفع حاجبيه دهشة، وغرقت في عينيه المفتوحتين على اتساعهما، أحاط وجهي الماثل أمامه بكفيّه بشغف حزين وقال:

– حياة هو اسمك، يجب أن تتسع مداركك على قدر اتساعها لتعرفيها جيداً وتعيشيها حقيقة. الوقوف على الحياد خارج دورة الزمان والمكان هو الفناء، ولا قيمة لهما بمعزل عن الإنسان الذي يملأهما بحركته.

حين غاب فهمت قصده، لقد قام بدوره وملأ بجهاده زمانه ومكانه، موت حنان أيضاً هو الموت ذاته الذي قضى به ثائر. يومها فقط فكرت أن أبقى كاتمة صرختي بصمتي، حتى أجد طريقاً للموت يشبه موتهما

الذي يعني حياة. نظرت طويلاً إلى صورة ثائر المعلقة على الحائط الذي أكلته الرطوبة، كان لابتسامته وهج عجيب. همست له أناجيه " كم لحظة أطفأت قلب متشبث بها لتضيء قلب يائس منها، وكم من مكان شهد ميلاد أروع الأحاسيس والنفوس هو بذاته شاهد على ميلاد أخسها"؟

نعم كثيراً ما رأيت كل ما حولي سراباً، عدماً، بلا جدوى، حتى التقيت بأبي الأدهم. بث روح المقاومة في نفسي، رأيت الدنيا من جديد، ورأيت ثائراً من جديد، وعرفته من جديد، وأحببته من جديد. صرت أراه مثل بحر كبير هائج يدعوني، لم أقاوم رغبتي في أن ألقي بنفسي إليه، اشتقت فعلاً أن أغرق في هذا البحر الواسع، ليس له مد يدنيني ولا جزر يقصيني، على هواي أغوص إلى الأعماق نحو الأبعد. ثائر هناك وراء الأفق في جنة وعد بها الشهداء تفرد بملكوت خاص، تمنيت كثيراً أن أصل إليه والتحم به بلا خوف ولا تردد بلا خزي أو انتظار.

صمت الجميع. الرجل واقف على باب المريضة ومعه طفلاه راجياً إذناً بالدخول رفضت المريضة، قبل أن يحسم موقفه منها، ولو كان لها منه عشرة أطفال.

خرج الدكتور سالم لمقابلة الزوج والطفلين، دعاه إلى جلسة في غرفة خاصة طالباً منه الانتظار ريثما يحضر الطبيبان المشرفان معه على الحالة بعد كتابة تقريرهما، ثم قال بلهجة أفزعت الرجل:

– استمع جيداً لما أقول، عمر إنسانة مرتبط بمدى تقديرك للمسئولية الملقاة علينا جميعاً، تأكدنا أنها حياة وليست حنان بما لا يدع مجالاً للشك، فكر ريثما نعود إليك.

صرخ الرجل بصوت عصبي، وأخرج من محفظته أوراقاً رسمية تثبت أنها حنان زوجته، عليها صورة لها، ودفتر العائلة الذي يثبت أنها زوجته وأم للطفلين، ولكن الطبيب قال بصوت جازم:

– هذه الأوراق ليست في صالحك بل ضدك، ولست في حاجة لها، أحتفظ بها لتدافع عن نفسك أمام القضاة، لقد قررنا رفع هذه القضية إلى القضاء، هناك إن لم تقل الحقيقة ستسجن، فكر ملياً ريثما نأتي إليك.

كان الجميع جلوساً في غرفة الطبيب النفسي، وقبل بدء أي استجواب اقتحمت حياة الغرفة بملابس المستشفى، رأت نظرات زوجها المدعى ينكر عليها عدم لياقة منظرها، لم تهتم بل قالت موجهة قولها للجميع" ليس عندي غير ملابس المستشفى فالأخرى ليست لي"

وجهت كلامها إلى الزوج:

– عم سليمان أنا حياة أم حنان؟

– بل أنت حنان.

– واسم حياة من أين اخترعته أنا؟

– هو اسم صديقتك المقربة التي ماتت في عملية انتحارية على الحدود، لعلك من شدة تعلقك وإعجابك بها اختلطت عليك الأمور فظننت نفسك هي. أليس هذا جائز يا دكتور؟

– نعم قد يحصل شيء مثل هذا، ولكن القرائن الأخرى ليست موجودة عند السيدة.

– هل من الممكن يا دكتور أن أعرف كل تلك التفاصيل التي رويتها لكم قبل قليل، بمجرد أن أكون قد سمعتها لا لأنني عشتها؟

– لا يمكن ذلك، ولكن الأمر يحتاج إلى جهد كبير إذا لم يساعدنا الأخ سليمان.

– لقد ذهبت إلى العنوان الذي ذكرته لي حياة في الجبل ورأيت البيت وقد تهدم نهائياً والمكان مهجور تقريباً أصررت على معرفة الحقيقة، التقيت بعض جيرانهم القدامى، سألت وتقصيت حتى عثرت أخيراً على من ذكر أن عائلة من أم وابن وابنة أختها قد عاشوا هنا زمناً طويلاً حتى استشهد الابن وماتت أمه حسرة عليه ولم يعد أحد يرى ابنه الأخت، لم يتذكر العجوز الذي كان يروي القصة اسمها إن كانت حنان أو حياة.

ثم قام من مجلسه وفتح أحد أدراج المكتب وأخرج منه فستان عرس مهترئاً وصورة قديمة لشاب، قفزت حياة من مكانها واختطفت صورة الشاب واحتضنتها وهي تبكي وتنوح، هذه صورة ثائر أشكرك يا دكتور سالم، أشكرك على كل ما فعلته من أجلي.

– لم ننته بعد يجب أن نعيد لك اسمك وهويتك الحقيقية سواء بالرضا أو بطريق القضاء.

قال سليمان متعلثماً:

– الحقيقة يا دكتور أنها حياة كما تقول، لكنني لم أخطفها، بل تزوجتها بعد أن وجدتها وحيدة تائهة مضيعة العقل. لم تكن مجنونة ولكني اكتشفت أنها نسيت كل شيء.

كنت معجباً بها منذ التحاقها بالعمل في المصنع، كانت تصدني كثيراً بمناداتي عم سليمان أو تقول بإنها تحس بمشاعري تجاهها مثل مشاعر الأب الذي لم تعرفها أبداً. بعد موت خطيبها عاودت سؤالها فلم توافق، بعد موت خالتها حاولت أيضاً رفضت، كان إعجابي بها يزداد كلما أصرت على الصمود والانتظار رغم كل المصائب التي نزلت بها بعد حرب 67، وجاءت حرب أخرى 73، فتغير حالها فجأة.

ذات يوم بعد عودتنا إلى العمل وانتهاء الحرب لم تعد، افتقدتها وبحثت عنها حتى بيتها في الجبل لم تعد إليه، ولكن فجأة ظهرت، كانت جالسة على الرصيف بجانب المصنع، هرعت إليها فرحاً بها ولكنها تجاهلتني، واستغربت كل ما سألتها عنه، بعد حوار قليل عرفت أنها لم تعرفني، ردت على كل كلامي بكلمات تكررها " أنا خائفة، الحرب تقتل كل من تصادفه" ثم تنادي ثائراً ثم خالتها أو اسماً لا أذكره تسأله بإلحاح عن ثائر ثم تنادي أبا الأدهم تنبهه أن يحترس، فالدم ينزف من ثيابه الجريحة.

تزوجتها بعد عدة أسابيع، لم يكن في نيتي التزوير ولكن خطر لي ذلك الخاطر والشرطة تسأل عن حنان التي ماتت قبل شهر أو اثنين لم أعد أذكر، لا أعرف كيف تجرأت وأعطيتهم أوراق حياة، وأصبحت أناديها به فتجيب. سارت الحياة بهدوء وأنجبنا ولدين أستطيع أن أجزم أنها كانت سعيدة لولا هجمات الصداع التي كانت تهاجمها بين حين وآخر طوال تلك السنين، نصحني طبيب العائلة بعرضها على طبيب نفسي ولكني خشيت العواقب، وحصل ما خفت منه.

– لقد أخبرتني بأن متاعبها الحقيقية بدأت منذ أن شاهدت الفدائيين الفلسطينيين يغادرون بيروت. وأخبرتني أنك فزعت وقتها، لماذا؟ هل قالت كلاماً يدل على عودتها إلى شخصيتها السابقة؟

– نعم هذا صحيح، لكنها كانت سرعان ما تستكين وتعاود مسار حياتها كالسابق، لا لوم عليّ، كنت معذوراً لأني أردت إنقاذ بيتي وولديّ. لكن حين بدأ الصداع يهاجمها بشكل شرس ويستمر طويلاً، اقترح الطبيب أن ندخلها المستشفى للعلاج النفسي، لم أوافق إلا بعد تلك الليلة التي رأيتها تعود حياة الحقيقية وتذكر حنان الشهيدة، ضللتها كثيراً ولكن لم يعد مجدياً كل ما أقوم به .

– هل تذكرين شيئاً مما يقول؟

– أبداً أكاد لا أصدق لولا معرفتي أنه صادق، ولكن كم أود أن أسمع عن تلك الصحوة التي يقول بأنه قاومها بتضليلي. أرجوك أن تخبرني بتفاصيلها.

– سأحكي كل شيء، كنا قد فرغنا من تناول العشاء، ذهبت أغير ملابسي وتركتك تنظفين المائدة، وكان الولدان جالسين بعد العشاء أمام جهاز الفيديو يلعبان إحدى الألعاب. عدت إليك فوجدتك تستمعين إلى إحدى أغنيات أم كلثوم التي تعشقينها، خفضت الصوت واقتربت منك أحتضنك وأنا أرجوك أن تؤجلي كلثومياتك إلى ما بعد نشرة الأخبار، ضحكت يومها وأنت تعيدين رفع الصوت عالياً قائلة :

– مالنا ولكل ذلك، دع الصغيرين مستمتعين بألعابهما، وتعال اسمع معي أغنية الأطلال.

خفضت بدوري صوت المسجل إلى آخر مدى وقلت سعيداً:

– اسمعي، خروج هؤلاء من بيروت فرحة وبشارة، ستعود لنا بلادنا كما كانت مزدهرة عملاً وسعادة، يجب أن أحتفل بسماع الخبر بكل وعيي.

قلت وأنت تعيدين الصوت عالياً كما كان:

– دع عنك كل ذلك، ليذهب من يذهب ويبقى من يبقى، لا شيء يهمنا.

تركتك إلى التلفزيون أبحث عن قناة الأخبار، ورفعت الصوت حتى طغى على صوت المسجل، كان التلفزيون ينقل المشهد بالتفاصيل، وفجأة وجدتك بقربي منفعلة جداً، صوت هدير السيارات مختلط مع أصوات الرصاص، عيناك ترقب الجميع بدقة، وجوههم حركاتهم، أذناك تلتقطان الحوارات والعبارات ودموع الوداع، حين احتضن أحدهم زوجته

ثم تركها وهو يوصيها على الأولاد بينما يده تمسح رؤوسهم طالباً منها أن تبقى شجاعة كما يعرفها، شهقت في بكاء مرير، ثم رأيتك تعدين أولاده، ثم تقولين " الفلسطينيون يخلفون أكثر من أي شعب آخر لأنهم مدركون أن الموت لهم بالمرصاد" وحين سمعت أم أحد المغادرين تقول:

– لن نستقر، كأننا خلقنا للرحيل وللحروب.

التفت ناحيتي وقلت:

– في الدنيا متسع لكل الناس إلا نحن، كأننا خلقنا للعذاب فقط.

رددت بجفاء فقد كنت خائفاً:

– ليس لنا دخل بما حلّ ويحلّ بهم، فليخرجوا من بلادنا، لقد ذقنا الأمرين من وجودهم، حتى الصديق لم يرحمنا.

نظرت في عيني، وجدت النظرة القاسية فلم تعلقي، انسحبت إلى المطبخ وغبت هناك، ثم سمعت صرختك فأسرعت إليك، وجدتك تمسكين برأسك وتصيحين "الصداع يفتت رأسي" لأول مرة منذ سنوات تقولين لي ياعم سليمان.

حين وجدت اللوم في عيني، وتناهى إليك صوت الطفلين يلعبان، هدأت ثم همست "آسفة"، تركتك والحقيقة أنني هربت من أمامك حتى جاءني صوتك حاملاً الإنذار الحقيقي:

– شيء لا يصدق ما شعرت به منذ لحظات، ضباب كثيف أطاش صوابي فظننت نفسي امرأة أخرى ولي اسم آخر. هل تعرف امرأة باسم حياة؟

– أبداً .. لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

خرجت من المطبخ وأتيت نحوي معانقة تقبلينني وتعتذرين قائلة:

– لا عليك ، لقد أثارني المنظر تماماً، قل لي هل أنا لبنانية أم فلسطينية.

– أنت لبنانية فلماذا تسألين؟

ظننت أن الأمر انتهى، لكنني وجدتك بين حين وآخر تنفرين مني وتهملين الطفلين وتغيبين في وجوم غريب فترات طويلة، بعد ذلك صرت ألحظ أنني حين لا أعير ما تقولين أهمية تصمتين وتسترسلين في التفكير، تنتابك نوبات الصداع الرهيب الذي يفقدك القدرة على التفكير أو القيام بأي عمل.

مرة أخرى تعرضت لهزة أخافتني فقد سألتني مؤكدة:

– كيف تقول إنك لا تعرف امرأة باسم حياة؟ أنا متأكدة من وجودها.

قلت وأنا أتحسس ردة فعلك بحذر:

– تذكرت .. إنها العاملة التي كانت تعمل عندي ثم ماتت.

– نعم.. لكن لم تمت بل استشهدت، كانت فلسطينية أليس كذلك؟

– بلى .

– اعتقد أنني أيضاً فلسطينية ولست لبنانية، فإحساسي تجاه المجندين لم يكن مثل إحساسك به. تذكرت شيئاً، إن حنان كان اسم المرأة الشهيدة وليس اسمي، اسمي الحقيقي أنا حياة و..

صرخت ملتاعاً:

– كفي عن هذا الهراء أمام الطفلين، أنت حنان وحياة تلك التي ماتت.

رددت على صراخي بصراخ مثله:

– متأكدة الآن أنني حياة وليس من قوة تقنعني بأن لي اسماً غيره.

هربت من أمامك مرة أخرى، وسمعتك بعد فترة تهوين على الأرض بلا حراك، فنقلتك إلى هنا. كان الطبيب في آخر زيارة لنا قد نصحني بأن أعرضك على طبيب نفسي، وقد فعلت، مستعد لتحمل أي مسئولية تقع علي!

ترنحت من ثقل هذا الهم الجديد على نفسها التعسة، وقالت:

– لقد أعطتني أمي اسم حياة لأنجو من ويلات الحرب في بلادنا التي كان هدفاً للإبادة، نجوت فعلاً، هربت بي خالتي إلى هنا لأعيش حياة يهون الموت أمامها ألف مرة.

امسك الدكتور سالم بيديها المثلجتين، شد عليهما يرجوها أن تحاول تفهم الأمر من أجل الصغيرين، هزت رأسها بعنفوان وقالت:

- لا أستطيع، لا أعرفهما، ولا أعرف هذا الرجل الذي يقول إنه زوجي ووالدهما، كنت وما أزال عروس ثائر، وكنت وما أزال عروس الشهيد أو القتيل أو الأسير. لن أكون لغيره أبداً

اسقط حقي عن هذا الرجل، فهو على كل حال أحسن لي، كان من الممكن لو تخلى عني أو لم يجدني أن يكون حالي أسوأ بكثير، ثم إنه لم يبخل علي وعالجني، صحيح أنه تأخر، ولكن لعل الله لم يرد لي الشفاء قبل الآن.

- لو أسقطت حقك سيبقى هناك الحق العام، فالتهمة خطيرة، التزوير في أوراق رسمية. لا أعرف ما رأي القانون في ذلك، لعل محاميه يجد له مخرجاً، لعله عمل كل ذلك بحسن نية، وأنت نفسك تشهدين له بالخلق الحسن.

دخل الطفلان إليها منتظرين أن تفتح لهما صدرها وقلبها، طال انتظارهما، غادر الأطباء الغرفة مشى الأب أمامهم، وقبل أن يغلق الباب التفت الدكتور سالم نحوها، وجدها تعاني تمزقاً لا مزيد عليه وحيرة وخوفاً، اقترب من زميله الطبيب النفسي هامساً:

- أليس مثل هذا الموقف خطراً عليها؟

- ليس بإمكاننا أن نجنبها إياه على أي حال .

الانتظار

بقلـــــــــم فتحيـــــــــــه القـــــــــلا

تنبه ، أصبح كثيراً ما يتكلم مع نفسه بصوت عال، هي عادة اكتسبها من العيش الانفرادي الطويل. يحاورها، يواسيها، يلومها، وفي كل الأحوال، يكون صوته حزيناً موجعاً.

جميع من حوله الآن يبدون تعاطفاً مشوباً بشيء من التملق، يتقبلون على مضض تصرفاته التي فقدت الكثير من رزانتها ومنطقها. حين عاد بعد غياب طويل، رأى ذلك واضحاً في نظراتهم، وإن كانت تختلف بين شخص وآخر. هو أدرى الناس بالكيفية التي يفكرون بها، قلة تبدي الشفقة وتخفي الشماتة، بعضهم يواسونه لكن في أعماقهم يهزأون أو يسخرون. لكن معظم أفراد عائلته، تنفث عيونهم سموماً لعودته غير المنتظرة، واضطرارهم لترك ما استولوا عليه من ممتلكاته.

منذ أيام عديدة لم يخرج من بيته، كأنه نسي كيف يتعامل الإنسان مع الأمكنة الفسيحة بعد أن قضى زمناً يتحرك ضمن حيز معين ضيق وقذر. كان يبذل جهداً خارقاً ليتحرر من الماضي، من سنوات المنفى الطويلة، ومن مكان تركه وراء ظهره غير آسف، وقد أخذا الكثير من عمره، تركاه بقايا إنسان.

يدور في نفسه حواره مع طبيب السجن، كان يقنعه بقبول قرار الإفراج عنه وعودته إلى دنيا الناس. هز رأسه بأسى وأسف وأجاب:

- لا أريد الخروج، لا أريد هذا العفو.

حين بانت الدهشة على وجه الطبيب، مسح دمعة فرت من عينيه وقال موضحاً:

- اسمح لي يا دكتور أن أوضح لك بعض الأمور، هل يستحق ما بقي من العمر أن أعود مرة أخرى إلى دنيا الحياة والناس، وأعاود التواصل مع من نسى أو مع من خان أو مع من ورثني وأنا حيّ أرزق؟

- طبعاً يستحق ولو بقيت في شعلة الحياة ساعة واحدة.

- كيف ذلك ؟ لا رغبة لدي ولا سبباً.

- ستتغير الأمور فيما بعد، إن ما تعانيه شعور طبيعي، قاومه.

استجاب وخرج، معنى ذلك أنه اقتنع بأن الطبيب على حق، ليس هناك أجمل من أن تعيش الحياة بكليتها، تحلم، تفرح، تتألم، والأهم أن تتمنى. هذا ما بدأ يردده لنفسه صبيحة كل يوم. شعر كأن بإمكانه

التغلب على أحزانه وهمومه، بأن يغوص في دوامة الحياة، ويوقظ روحه ونفسه من سباتها.

من أجل ذلك صار يرفع صوته أكثر مما اعتاد أن يفعل، يطرد الهاجس الذي يسيطر عليه، إنه بانتظارها، أو سيموت.

ترك فراشه الوثير، تجاهل وجود خادمه الواقف بين يديه منتظر أوامره، وقف بجانب النافذة يتأمل حديقة منزله وكان مولعاً بها، تجمدت عيناه صوب شجرة الصفصاف التي زرعها بيديه كبرت وبسطت فروعها على امتداد الفضاء. رأى الحزن يلفها وأغصانها المنتشرة في الفضاء الواسع ناشفة كالح لونها كأنها سواعد جياع تستجدي رحمة القلوب. إنها بانتظاره، قد تسترد عافيتها حين تراه، لكن قد تدهش، وقد ترفض أن تستجيب له إذا ما رأته قد عاد دون حبيبته. اقترب الخادم منه وأشار نحوها قائلاً:

– لقد جفت بعد غيابك رغم عنايتنا بها، أعتقد أنها شاخت ويجب قطعها.

جفل ..ترى هل يستطيع؟ أيطاوعه قلبه على قطعها؟

بدأت الأفكار تتداعى، واجهه السؤال: أو تسأل؟ ألم تستطع فعل ذلك من قبل مع من كانت ملء القلب والروح؟ هرب من الجواب ومن الأفكار، وأمر خادمه بتجهيز إفطاره بسرعة. انصرف الخادم بينما وقف برهة مرتبكاً حائراً، اقنع نفسه بأن الخريف الأبدي سيريح الصفصافة، لن تحس بتعاقب الفصول، لن يعذبها ريح وتجمد غصونها أكوام الثلوج، ولن

تنتظر عودة شروق شمس فتحرقها بقيظها. الموت راحة، الموت نعمة، لكنه حيّ، ليفعل شيئاً ما. سيعود إلى برنامجه اليومي وإلى نظام حياته قبل هذا الغياب الطويل، وقبل أن تتبدد سنوات عمره هباء.

تناول إفطاره لأول مرة منذ أن عاد، كأنه إنسان آخر، إنسان يرى الأشياء كما يراها محدث نعمة، يندهش من كل هذه الرفاهية حوله، ألوان الطعام، مائدة الطعام الطويلة وكراسيها العديدة، مفرشها الثمين، وكل ما عليها من فضيات وكؤوس وصحون، كل شيء مبهج ومع ذلك لم يستطع أيّ شيء أن يبعد عن نفسه البلاء المسيطر على عقله والهواجس التي تأتيه الآن بلون الحداد، أليست هي ذاتها التي كانت تراوغه وهو ملقى هناك في العتمة، وتسحبه إلى هذه الدار بكل ما فيها فتخفف عنه أحزانه وشظف العيش هناك؟

تلفت حوله بذعر، أما زال حبيس تلك المساحة الضيقة؟ لم ترصد عيناه إلا الحقيقة الجميلة التي يعيشها، إنه في غرفة نومه، وهذا الشيء اللين المريح سريره، فلماذا لا يذهب الخوف إلى غير رجعة؟ لماذا لا يشعر بتلك المتعة التي كان يحس بها قبل أن يفارقها؟ أو كالتي كان يخترعها وهو مغمض العينين هناك، فيحس بدبيب عذب في مشاعره، يهرب إليها من الواقع البائس في رقوده على فراش خشبي يمزق جنبيه؟ كان يعيش اللحظة بكل روعتها ورفاهيتها حتى توقظه دبيب أقدام الحراس وصراخهم ناهرين أي سجين دون داع، فمهمتهم الأصلية كانت

إقلاق الراحة وتنبيه الحواس كلها، لتعيش الوضع المأساوي لحظة بلحظة، فتتحطم الأعصاب ويقعون صرعى الانهيار.

ما زال يطل على الأشياء من ذلك البعد، ويتعامل مع أشيائه الخاصة كشخص غريب، فيما مضى كان جزءاً منها، وأصبح الآن يستصعب الاندماج فيها من جديد. لا بد من إيجاد وسيلة ما للعودة إلى الحياة حقيقة، ليس الخروج إلى النور فقط، أو من مكان ضيق إلى هذا المكان الفسيح، أمور أخرى وكثيرة تلك التي تعني أنه يعيش حقيقة، يعيد اتصاله بواقعه الذي تخطاه هرباً من عبثيته.

سقطت عيناه على جهاز الهاتف الرابض قرب سريره، تذكر أنه لم يرن إلا مرة واحدة منذ عودته وكان الاتصال خطأ، وأغلقت السماعة بسرعة، ارتعش وقتها لصوت الحياة فيه، ليت هذا الطالب ولو كان مخطئاً قد أحس بمدى حاجته لصوت إنساني يحادثه فأطال المكالمة، ليس مهماً ما يقول، لماذا لم يحاول هو إطالة الحديث؟ كأن يسأله مثلاً عن الرقم الذي يريده، أو يسأله من تريد، أي شيء المهم أن يتكلم، أن يحس أنه فرد في هذا الجمع الكبير.

أمسك بمفكرة الأرقام وقلبها بعنف، فرت صفحاتها مذعورة بعد طول رقاد، ساعدته على محو آثار الزمن عن ذاكرته، اتصل بكل الأصدقاء يدعوهم للعشاء في المساء نفسه، وخص بالدعوة أولئك الذي وجد أسماءهم بخط زوجته، واستراح كأنهم الحياة ذاتها.

تنهد بعمق، هذه خطوة لا بأس بها، يجب أن يكون بينهم على طبيعته التي يعرفونه بها، يجب أن يكون مسلياً محدثاً لبقاً، لن يدعهم يرونه من الداخل، فالجراح والانكسار والأحزان أمور لا تعني إلا صاحبها. هز رأسه المتعب مؤكداً ما عزم عليه، شد قامته أكثر، لا شك أن إقبال الأصحاب عليه مرة أخرى سيسعده، ولا شك أن الود القديم باق كما هو.

قفز بخفة وهو يدندن لحناً سريع الإيقاع، مهيئاً نفسه للحياة وطبيعتها العجولة من جديد، غير تلك الحياة الرتيبة التي كان يعيشها هناك. دق قلبه متجاوباً مع الصورة المحببة التي عبرت خياله، صورة زوجته، سندريلاه المسحورة، هل عاش إنسان ما حباً كحبه زوجته في هذه الدنيا؟ محال، ولكن.. لماذا..؟ آه..لا لزوم لمثل هذا التساؤل الآن، فها هي قادمة نحوه، تتهادى في مشيتها، كأنها الأميرة التي ضيعت عن عمد طريقها إلى قصر الأمير وجاءت إليه، هي أمامه بكل إشراقها وبهائها، فاح عبيرها، اندفع نحوها لاستقبالها، رأى إعراضها فتوقف، مازالت غاضبة منه، ببساطة وكبرياء تقدمته وجلست على مقعدها المفضل.

استفاقت كل رغباته لاستعادة الوصال القديم، كأنما مسته العصا السحرية ذاتها التي مست سندريلا فنقلته من بؤس الحقيقة إلى روعة الحلم، ومن وجعه الدائم إلى فرح عابر. اقترب يريد أن يشهد المكان

والزمان أنها له وحده، لن يطولها أي كان بعد اليوم، سيتقبل الوضع مع شيء من التفهم، سيعرف كيف يحتفظ بها لنفسه أبداً.

مدّ يده ليلامس الوجه الفاتن الماثل أمامه، يريد أن يؤكد لنفسه وجودها، ويؤكد لها ملكيته، لكنها لم تمكنه، أشاحت عنه بوجهها، فاضت مشاعرها وغمرت وجهها وعينيها، نقرت بأصابعها على مسند المقعد ترافق النغمة التي تترنم بها شفتاها بتوافق عذب مع اللحن الواصل إلى أذنيها من البعيد.

جلس قبالتها بسكون، محدقاً بها، هائماً وراء ذكرياته. كم أحبها وانبهر بها! كانت في ذلك الحين دون أحزان، منطلقة في حياتها كأنها الأمل ذاته، يعرف هذه التفاصيل لكنه لا يعرف لماذا تغير حالها إلى هذا الكم الخيالي من الحزن قبل أن يفترقا. فاض وجهها بفرح جلي، تشجع للاقتراب أكثر، لا لن يسئ الظن بها، لن يطارد أفكارها، فذلك يؤجج غضبها، لا يريدها أن تغضب، وهو يؤكد أنه لن يرتكب الخطأ مرة أخرى تقدم أكثر، لامس بأصابعه المرتعشة الباردة خدها، انحدرت يداه ببطء نحو اليدين الساكنتين فوق مسندي المقعد. بقيت كالمخدرة لا تتحرك، عيناها هائمتان بعيداً جداً خارج حدود زمانه ومكانه ووجوده شخصياً.

تحرك غضب في صدره فكبته، يغري نفسه بفرح خبيث، لترتفع الأغصان إلى الأعلى ما استطاعت، الثمار ليست بعيدة المنال عنه. ما زالت في القلب مثل شعاع نور، تتدفق كالضياء، ليت الكلمات تسعفه

ليصفها، شعوره بروعتها يصل إلى حد الإبداع، وهي تستحق أكثر بكثير، لا يعرف كيف تتسع كلمات شاعر موهوب أو إبداع رسام ملهم أو لحن موسيقي بارع لنقل مثل هذا الشعور.

هل تعرف أنها نفسه ذاتها وهو على سجيته؟ هل تعرف أنها حالته الفريدة، حالة توحده معها؟ اقترب من الوجه المتألق وهمس بوجد:" أنت يا ملاكي أحب إلي مني أنا، أنت أعطيتني معنى غريباً لهذا التوحد والعشق، أنني المحب والمحبوب، العاشق والمعشوق" فرت من أمامه على عجل.

سألها بعذاب:

– حبيبتي لماذا تفرين كلما أصبحت أقرب إلي مني؟ أحتاجك بشكل مرير، مثل احتياج كل حي للماء.

اشتعلت نظرة غضب في العينين الجميلتين، طفت طبقة دموع شفافة وسخية زادتها روعة، بهتت فرحته، اشتد نبض قلبه المشتاق، تأكد من موت كل شيء، لم يعد يرغب بالمزيد.

لكن صوتها أتاه من جوف الأيام:

– هذا صحيح، لقد مات الحب ومات الفرح.. لم يبق لنا شيء.

لم يسألها إيضاحاً لموت الحب مع أنه يتحرق شوقاً ليعرف، بقي على جموده، وسؤاله المبحوح يترنح تعباً وألماً. باستطاعته إرجاء أي شيء الآن إلا رغبته المتأججة نحوها، يريدها بشوقه المعتاد دون مراعاة لأحاسيسها. سيتركها تتكلم لتريح نفسها، كالعادة لن يستمع لما تقول،

فقط ينتظر حتى تنهي وصلة الكلام، ستمل وتسكت عندها سيكون بوسعه.. سمعها تقول وكأنها قررت أن تزيد من عذابه:

– سأقول صراحة ما حاولت أن أوصله إليك دون جرح مشاعرك، مع أنك تجرح مشاعري بمنتهى السهولة، بل وأؤكد لك الآن أن استمتاعك بذلك كان يبلغ مداه كلما آلمتني أكثر وأكثر.

هل تصدق أن هناك امرأة في الدنيا تقبل بألا تثير عواطف زوجها وتحرك رغباته تجاهها إلا حين تنهشها رغبة متأججة في عيون الآخرين؟ كنت أقول لك بكل حب، دع هذه اللحظات لنا، وحدنا من يمتلكها، وحدنا من يبتدعها، من المفروض أنها تتخلق وتحلق مني إليك ومنك إليّ. فتستمر في تصعيد أوهامك، وتهيم وتحلق وراءها، تنفح بها بعزيمة لا تريم، فتتأرجح رغبتك، تزداد غبطة، بينما كان هذا الوهم يشدني بعيداً عنك، يقتل في روحي أي رغبة، يقتل في داخلي إحساسي الجميل تجاهك. تمنيتك أن تحس بمدى ألمي بمثل هذا التخيل.

– لكنك كنت أحياناً كثيرة تتجاوبين.

– لأنك كنت تتغافل عن الإحساس بمدى همود جسدي بين يديك، وتحاول بالأسلوب ذاته بث الرغبة فيه من جديد، لا تفطن إلى أنك بذلك تدفعه أكثر وعمداً ليغوص في بركة الثلج الذي ألقي فيه. تنهمر دموعي، ولا تفهم. تزجرني، تعنفني، تفهمني بأنه مجرد كلام لا يقدم ولا يؤخر.

– كان مجرد مزاح يطربني كثيراً ولا يضرك.

– تتشنج شفتاي من الألم، تكتم الصرخة بقبلات تخنقني، ثم تهمس لي أن الإعجاب الذي تلمحه في عيون من حولي يزيد متعة فوزك وحدك بالغنيمة كلها، فأشعر بالاشمئزاز.

– لماذا كنت تفعلين؟

– كنت أريد إسعادك. لكن مع الأيام لم يعد إعجاباً بريئاً لتسليتك، صار رغبة، صار شهوة، صرت أكثر منك ولعاً بتلك اللعبة رغم خطورتها.

انتفض واقفاً، ماذا دهاه، وعيه أكبر من تلك التهيؤات، أنكر وجودها، بل هي بعيدة بعد السماء عن الأرض، ذهبت إلى غير رجعة، ما هذه الصورة التي أمامه إلا ظلها المقيم في نفسه، خبأها مرة أخرى حيث هي منذ زمن الرحيل الطويل الأخير، لم يعر مكانها أمامه أي أهمية تذكر، لم يلتفت ناحيتها، ولكن ماذا يفعل بصوت نشيجها؟ لا يريدها أن تتورم عيناها من البكاء، يريدها جميلة جداً هذا المساء كما هي دائماً.

ضبط نفسه متلبساً بالتهمة التي ألصقتها به، ها هو يريد أن يباهي بها صحبه كشيء يقتنيه، لها الحق أن تغضب وتثور، لا ينكر أنه يشعر بكثير فخر واعتزاز بما يملك، ولكن أيمكن أن يصل به هذا الهوس إلى الحد الذي يريد من الآخرين غبطته على كل شيء حتى على زوجته؟

صاحت ملتاعة بعصبية:

– ها أنت تفكر بي كشيء تقتنيه، أعترف لك أن نظراتهم كانت تعذبني، ونظراتك أيضاً. حين تضمني إلى صدرك بعد ذهابهم، وتستعيد تلك النظرات وتحيلها إلى كلام وهمسات لم تقل، كان صوتك يأتيني كريهاً، أحسه مثل فحيح أفعى سامة، يتحول القهر في أعماقي إلى احتقار، في تلك اللحظة كانت فرحتي بك وبنفسي تموت، بعد ذلك مات الحب.

لم يتجاهل ما تقوله هذه المرة بل تقدم بثبات وقال:

– لكن هذا لا يبرر لك الخيانة.

قالت بألم:

– لم أخن بالمعنى المفهوم للخيانة، بل عشت مشاعر أخرى أنت لا تعرفها. كان لا بد أن أتجاوب مع إنسان يحبني أنا، كما أنا، ويحترمني كإنسان حرّ، يحرص عليّ حرصه على نفسه. لقد أحبني كثيراً، هل تعرف أن وجودك صار يعذبه؟ كان يرى الأمور مقلوبة هو الذي يملك قلبي لا يملك في حياتي أي حيز، وأنت بصك حرره قاض تصبح زوجاً شرعياً تملك حياتي دون قلبي.

بدا البيت في الموعد المحدد متأهباً تماماً تغمره الأضواء وتفوح رائحة الورد من كل أركانه، المائدة الطويلة عامرة بانتظار المدعوين بعد ذلك الانقطاع. بدا صاحب الدعوة في قمة أناقته، علق وردة في عروة سترته وابتسامة فوق شفتيه، وانتشر البشر فوق الوجه الهادئ، كأنما الأعوام التي مرت لم تسحقه، كأنه لم يكن أبداً نزيل الزنزانة رقم 56 ،

ولا حمل رقماً فوق سترته الزرقاء الكالحة. كم يكره أن يعود للذكرى، كم يكره أن يتذكر تلك الأيام السوداء، ولا منجى من الألم إلا بالهروب من عقله ومن الأفكار التي تعشش فيه، ومن المكان الذي يسرقه من نفسه ويسترده من هروبه.

قفز درجات السلم المؤدية إلى الدور العلوي، واتجه مباشرة إلى غرفة نومه. فتح خزانة ملابسها، صوت مثل الأنين صدح بانفصال الدرفتين عن بعضهما البعض وتناثرت غبار السنين، اختار لها بتأن ثوباً لتتألق به الليلة، وضعه بحنو بالغ على السرير، اقترب من باب الحمام، نقر عليه نقرات خفيفة مرحة، سمع رذاذ الماء فاستخفه فرح طفولي قال:

– لقد اخترت لك يا حبيبتي الثوب الذي أريدك أن ترتديه الليلة.

خطا نحو باب الخروج ثم عاد ينقر باب الحمام مرة أخرى وهو يقول ضاحكاً:

– لا تضيعي الوقت في الحمام كالعادة، أمامك نصف ساعة فقط، سأعود بعدها لاصطحابك، سآمر بإعداد شرابنا المفضل لنحتسيه قبل وصول الضيوف.

دخل الصالة منتشياً مرحاً، نادى خادمه وأمره بإعداد الشراب له وللسيدة، هزّ الخادم رأسه بالإيجاب دون أن ينظر إليه وانسحب مسرعاً قبل أن يلحظ سيده ما اعترى وجهه من استغراب وخوف، لم يملك أمام هذا الحبور كله الذي ملأ سيده سوى الامتثال، ولكنه بقي يراقب الأمور التي لا تبشر بالخير.

كان سيد البيت حائراً لا يستطيع الاستقرار، جلس بضع دقائق ثم وقف. نظر إلى ساعة يده مرات ومرات بضجر، جال بنظره في أرجاء البيت، دقق بكل شيء، فتح كل النوافذ ثم عاد إلى إغلاقها. كم هو وحيد وحزين! ماذا حقق في حياته سوى هذا الشيء الغامض الذي يعتصر قلبه ويقض مضجعه؟ ما فائدة المال والصحة والنجاح، إذا كان القلب قد غرست به سكين إلى الأبد؟

صرخ منادياً خادمه بأن يذهب ويستعجل السيدة، أطاع الخادم الأمر وذهب بعيداً ولم يعد، تداعى الرجل على مقعده، وغرق في أحزانه، دائماً يحمله تيار الحزن إلى الموقف الرهيب، إلى لحظة بعينها، لمح نظرتها الباردة التي ردت بها على حمى تساؤلاته ففقد صوابه، واقتلع شجرة الياسمين الفواحة التي غمرته سنوات طويلة بعبيرها، بعد ذلك لم يعش أي فرحة تذكر، ولا استطاع رؤية نور. جف عوده، ونشف دمعه بعد أن سفحه على أشياء تحطمت بلحظة أمام وحشية الخيانة.

قفز من مكانه مرة أخرى وجرى إلى الطابق العلوي كالملدوغ طلباً للفرار، وجدها أمامه تتجول في البيت واضعة لمساتها الأخيرة هنا وهناك، كاد يجن، تسمرت قدماه على آخر درجات السلم الذي كان يتوسط الطابق الأرضي فكان يراها في كل اتجاه، كيفما تحركت وأينما نظر.

جمالها أخاذ، وروعتها لا تضاهى، نشبت في أعصابه نشوة حب حقيقي، لا تشوبه أي شائبة من أوهام العواطف التي كان يقنع بها نفسه

وهو منفي عنها ليصبر على ألم الفراق. كم أحبها! وكم يحبها! استغرب كيف لم تتلق الحب بالقدر الذي منحه لها، ولا أعطت كما أعطى. روحه طارت من أكفانها نحوها، فراشة تحوم حول نورها المبهر دون اتزان، أمسك باليد الممدودة نحوه، مشفوعة بابتسامتها الحاملة ألواناً كثيرة واحتمالات تحيره أكثر. أجلسها على مقعدها وجلس على المقعد المقابل.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة ساخرة، كلما اقترب منها وجدها أبعد مما كان يظن، خيوط واهية تشد كلاً منهما للآخر، ليست حقيقية بل وهماً. عاشت وستعيش معه إلى الأبد، لن تغيب عن فكره ولا عن قلبه ولا من إحساسه. في لحظة صحو أشرق بعض الضياء في وجدانه، خفض عينيه حتى أغمضتا، هذه الملكة الجالسة أمامه هي من صنع أوهامه وخياله المرهق، سنوات السجن أثرت على كل وجوده فعاثت فيه الخراب، لا يعتقد أنه سيخلص منه ويعود سوياً كما كان. لكن السؤال الذي ينبح في جنبات نفسه ما زال قائماً وملحاً ومؤلماً: من استطاع اختراق عقلها وسحبها إلى العتمة وهي العاشقة للنور؟ من استطاع إيقاف تدفق شلال الحب من كل منحنى في نفسها الرائعة؟ عطل الغلال، ومحق الخير الوفير، ليس من بيته فقط، بل من كل مساحات الأرض. لن يلوم إلا نفسه، ماذا فعل بها حتى استباحت كل ممنوع؟

الخادم ينحني أمامه بالصينية الفضية وعليها كوبا العصير الطازج الذي تغرم به سيدة البيت، زجره متضاحكاً:

- السيدات أولاً.. فما بالك وأمامك أجمل السيدات وأعظمهن.

اعتذر الخادم بلباقة، وتراجع خطوة للوراء ووضع الكوب الآخر في متناول يد الجالسة على المقعد المقابل للسيد حيث أشار، وابتعد كاسف البال قلقاً يراقب الموقف بكل انتباه، يركض باتجاه سيده حين يحتد الحديث، يعاود الابتعاد عندما يأخذ طابع الهدوء والعتاب، ثم يعود من جديد عندما يسمعه ينتحب ويصرخ بكلمات مواسية حزينة تدمي قلبه:

- هل تذكرين آخر سهراتنا ؟ كنا نجلس مثلما نحن الآن، نحتسي الشراب ذاته وننتظر قدوم الأصحاب.

- 000

- لماذا لا تردين؟ آه .. تذكرت، كان ذلك قبيل سفرة العمل الأخيرة، كان هذا آخر عهدنا بالحب والفرح، أم خدعتني العمر كله؟ هل ما زلت غاضبة؟ معك كل الحق! لقد كان آخر لقاء بيننا عاصفاً. عدت من السفر قبل الموعد المحدد، في اليوم الثاني على ما أعتقد، وكان المفروض أن يطول الغياب أربعة أيام كالعادة. كنت في طريق عودتي أمني النفس بلقاء فريد مفاجئ، فرحاً بأنني سأراك في الفوضى التي كثيراً ما حدثتني بأنك تغرقين نفسك بها طوال فترة غيابي. تعتزلين الأصحاب والأقارب، فوضى في البيت، إهمال في زينتك، في مواعيد طعامك، كانت المرة الأولى التي سأراك تقضين أمسية وحدك وأنا لست معك.

سكت طويلاً ثم صرخ :

- ما الذي حصل ؟..هيا أكملي.

- 000

ارتشف آخر قطرة من الكأس ثم وضعه بعصبية على الطاولة أمامه، وقف وقد أخرج الولاعة من جيبه ليشعل لها لفافتها، ثم رجع وقد أطفأ اللهب، ارتمى فوق المقعد الذي كانت تجلس عليه باكياً منتحباً على صدرها، متوجعاً بحدة، وهو يعتصر الحروف:

– ليتني أمسكت ذلك الوغد ليلتها.. ليتني عرفته.. بل سأعرفه إنه من أصدقائنا ما في ذلك شك، أريد أن أعرف كيف استطاع شخص مثله أن يغزو هذه القلعة الشامخة دائماً وأبداً؟ كيف استطاع أن يحني هذه الرأس العالية للعشق الحرام؟

أطبق بيديه على عنقها وهزها بعنف وهو يعيد سؤاله الأبدي، السؤال الذي عاش يعذبه سنوات المنفى، يسأل ويلح بالسؤال، رغم أن كلاً منهما في عالم مختلف عن الآخر. "من هو؟"

تقدم الخادم يرفعه من مكانه حيث جثا منهاراً وهو يقول :

– ليتني عرفته لأريحك يا سيدي، لكنها في ذلك اليوم المشئوم طلبت مني أن أعدّ عشاء لشخصين وأغادر البيت قبل التاسعة.

زجره موبخاُ:

– وأنت من سألك؟ دائماً تحشر نفسك فيما لا يعنيك، وتعيد على مسامعي الكلمات ذاتها ودائماً أخرسك، هيا أخرج حالاً واتركنا على انفراد.

_ لكنها المرة الأولى يا سيدي التي أقول هذا الكلام و..

نظر نحوه بوحشية أفقدته الصواب، فخرج مسرعاً لكنه آثر أن يبقى بجانب الباب وسيده بمثل هذا الانهيار. سمعه يقول في هدوء:

– ها أنا ذا هادئ كما ترين، لن أنفعل، لن أكرر ما فعلت، لن أدع الثورة تتملكني وتفزعك، لن أشدد قبضتي على عنقك، بل سأترك مجالاً لمخارج الحروف كي تطفو فوق خوفك وغضبي، قولي ولا تخافي.. من هو؟

لماذا لا تنطقين؟ لماذا تحاولين إثارة غضبي مع أنني لا أريد؟ لماذا تشهقين؟ هل أشدد قبضتي على عنقك؟ لا ..لا أريد ذلك ولكن ساعديني، لماذا الذعر في عينيك؟ ألم تصدقي وتطمئني؟ يا إلهي.. شحب لونك، ها هو كل شيء يتكرر، وأنا لا أريده أن يتكرر. لكنك تصرين على الصمت.

تلفت حوله مذهولاً وعاد إلى هذيانه:

– أشم الرائحة ذاتها، رائحة الخيانة.. رائحة عطرك و..عطره. رائحة السجاير.. هذه هي الفوضى ذاتها التي تعم غرفتك.. ها أنت مسجاة مرة أخرى نصف عارية على الفراش المرتبك..هل مت قبل أن تنطقي؟ هل قتلت مرة أخرى؟ هل قتلتك حقيقة الآن؟ يا إلهي لم أكن أريد ذلك، أفضل الموت على الذهاب مرة أخرى إلى الزنزانة 56، أفضل الموت، أفضل الموت...ثم صمت ، صمت طويلاً.

انسحب الخادم فقد بدأ توافد المدعوين الأصدقاء، جاءوا فرادى بلا زوجات، إنها المرة الأولى التي يجتمعون فيها في هذا البيت منذ تلك الفاجعة التي أودت بحياة سيدة البيت وأرسلت بزوجها إلى السجن.

تقدم الخادم الحزين نحوهم، نظراته تتهم كلاً منهم بدوره ولا تستقر على شخص بعينه. كان يقدم الشراب ودموعه متجمدة في عينيه، احتسوا شرابهم دون حماسة، فكلهم متربصون قلقون بانتظار ظهور صديقهم بعد عودته من السجن قبل انقضاء مدة حكمه لوداعته وهدوئه وحسن السلوك. تقدم أحدهم من الخادم سائلاً:

– أين سيدك يا هذا ؟؟ ألم تخبره بحضورنا؟

– إنه في تلك الغرفة يا سيدي ولكنه..

تحرك السيد قبل أن يسمع بقية الحديث، مما أثار حفيظة الخادم فلحق به وقال موضحاً للجميع دون انتظار استفهامهم:

– إنه يمارس شيئاً كالجنون، يتحدث إلى زوجته، كأنها معه فعلاً.. يلاطفها تارة، ويغازلها أخرى، ثم يعنفها يصرخ ويهذي وينتحب، صوته يخرج من نفسه المكسورة حاملاً الموت الأكيد، الحقوا به أرجوكم قبل أن نفقده.

خيم على الجميع صمت مفزع. تقدموا إلى الغرفة التي أشار إليها الخادم، كانت مغلقة، نقر أحدهم على الباب مستأذناً، ثم نادى عليه مرة وأخرى، تناوب الجميع المحاولة، ولا جواب، دفع أحدهم الباب برفق، وجده متكوماً فوق مقعد في الغرفة التي كان يقضي فيها أمسياته مع

زوجته الراحلة. تعاونوا على رفع رأسه المنكفئ فوق مقعدها محتضناً أحد أثوابها وقد تشنجت أصابعه حوله.

كان نصفه متشبثاً بالمقعد الذي أشار إليه الخادم، إنه مقعد السيدة المفضل، نصفه الآخر ملقى على الأرض، عيناه مفتوحتان شاخصتان نحو صورة معلقة على الحائط المقابل، تجمعه مع زوجته وأحد الأصدقاء.

أيام مع ..الحب

كنت قد ضربت صفحاً عن كل ما جرى في سنوات عمري الماضية، قصة حب قديمة منيت بفشل مباغت لم يكن في الحسبان. فجأة تخلى حبيبي عني، ضاع في غياهب ذلك المجهول الذي نسميه الغربة. سنوات رائعة، لم يبق منها بعد أن هجعت الأوجاع إلا ذكريات صافيه وصادقة، بريئة براءة طفولتنا آنذاك. بقي جاد في قلبي أمنية غالية لم تتحقق، ترسبت في أعماقي واستقرت هناك، على الصورة التي أردتها بعض ذاتي، وأحلى ما في عمري كله.

لقد عشت حياتي بعد ذلك وأيامها تمر بي جافة خالية تماماً من الفرح على الرغم من أنني أحمل هذا الاسم، لم أكن شقية ولكنني أيضاً غير سعيدة، تكيفت قدر الإمكان مع ما توفر لي، لم أعد أحلم أو أسعى إلى الحصول على الأفضل، لكني تمسكت بكل إصرار بالطفلة التي كنتها حين عشت وأحببت وعرفت طعم الحياة السهلة الممتعة، أخفيتها في داخلي أستمد منها شيئاً من مذاق حلو كلما أعيتني مرارة الحياة.

تزوجت وثورة البركان على أشدها، داويتها بالتي كانت هي الداء كما يقولون، أملت بأن أستعيد ثقتي بنفسي وبالناس وأضمد جراحها، فلجأت إلى القلب الذي أرادني بدل الذي نبذني، وإلى ذراع يسندني بدل الذي تخلى عني، وإلى صدر حنون يحتويني بدل الذي خذلني.

تزوجت ممن تقدم طالباً يدي وقد بهرته القشرة الخارجية، ولم يهتم للشرخ الكبير الكامن في نفسي، حين شرحت له مأساتي اعتبرني طفلة صغيرة تلهو بأحاديث الكبار، أكد قائلاً بثقة الرجل المتفهم:

– كل إنسان في هذه الدنيا يتعرض إلى حب مثل هذا في بداية شبابه، يحب أحداً من الأقارب أو الجيران، ثم يتناسى كل شيء مع مرور الأيام، أو لعله فيما بعد يضحك من ذاك الحب وسذاجته.

أجبته ورعشة بكاء صادقة في صوتي :

– لكنني جرحت وتألمت.

ضحك ساخراً دون تعليق. صار يغمرني بحب كبير، واهتمام وعواطف ساخنة وسريعة، فاستجاب القلب الجريح كما توقع، وأعلنت الموافقة. تحدد موعد الزواج وفي نفسي إصرار على دفن الماضي بفرحه وجراحه. كلمات جاد في رسالته الأخيرة التي يحلني فيها من "الارتباط الذي فرضه الأهل بطريقة ساذجة" هكذا قال، ولظروف طارئة قد يبررها لي فيما بعد، ساعدتني على الإصرار بأن ألغيه من حياتي وأن أبدأ من جديد.

كان القدر يدبر الأمر بطريقة عجيبة جعلتني أصدق قبل الجميع أنني أقصيته تماماً ليس من عقلي فقط وإنما من قلبي أيضاً. فقد عاد جاد وزواجي على وشك أن يتم، همس لي من وراء الجميع:

- ماذا لو غفرت وانتظرت؟

جاء جوابي فاتراً، نظرت نحوه بتحد أدهشني، وبكل كبرياء قلت:

- أنت الخاسر، وأنت الذي سيندم.

هكذا انتهى ما بيننا، همسة منه حاول أن يحمّلها حرارة الحب القديم فلم أحس بها ولم أجد لها وقعاً على نفسي، وكلمات مبتورة مني، خيل لسامعها أنها تحمل في أعماقها الحقد، بينما بدت لي صافية وصادقة كما تكون كبرياء امرأة مرفوضة. أقدمت على الزواج بنفس راضية وصافية، وفتحت قلبي لمن ليس له، على أمل أن يستحوز عليه بجدارة ويساعدني في الوصول معه إلى بر الأمان.

شهور قليلة مرت ونسي كل الوعود، بدأ يؤرقني بإصراره على اقتحام أعماق نفسي، يريدها برسم الذي اشترى وليس برسم الذي باع، تصرفاته تؤكد أنه اشتراني، وغبن فيما اشتراه، فأصبح لا هم له إلا تعذيبي وإذلالي.

لم أعد أرى على وجهه إلا ابتسامة باردة، ونظرة فارغة، وقسوة نادرة، وكلاماً أجوف بلا موقف ولا هدف، وحباً عقلانياً جامداً لم أفهمه. طويت قلبي على شوق طاغ لعاطفة صادقة تنتشلني من متاهتي، وتسمو بعواطفي فلا أتخبط في متاهة، أعرف أن سرها ومفتاحها هو

"جاد". تحرض روحي على اللحاق بالطائر المهاجر أو رفض وجود ليس له فيه مكان .

لم يعد ببني وبين زوجي من موضوع للحديث سوى أوامر من طرفه، وأغلب الأحيان بطريقة استفزازية أو بها الكثير من الاستعلاء في تعليمي الطريقة الجديدة التي يريدني أن أتصرف بها في كل صغيرة وكبيرة، وتذمر من طرفي، خفي في بعض الأحيان ومعلن معظم الأحيان. حقيقة ماثلة للعيان أن أسلوب حياته مختلف تماماً عن أسلوب حياتي، ولا يتناسب وطبيعتي أبداً.

كان عليّ أن أمارس حياتي وكأنني ظل لزوجي، كان يساعدني، لكن بتلك الطريقة الفظة :

– أوف.. تعلمي، يجب أن تتقني بسرعة نظام حياتي.

– الحقيقة أن انتقالي المفاجئ إلى نمط غريب من الحياة اربكني، إنني أحاول ولكن احتاج بعض الوقت.

رفض زوجي هذا التعليل وأصرّ عليّ أن أقوم بنفسي بالإشراف على كل صغيرة وكبيرة في البيت. كان ذلك منذ البداية، منذ حفل الاستقبال الذي أقمناه في بيتنا لمجموعة من أصحابه المقربين حين أتوا للتهنئة بالزواج.

كأن حياتي مع ذلك الإنسان الذي رضيته زوجاً وأملاً، قد قضي عليها بالضربة القاضية بعد ذاك الحفل. كمحاولة مني لإنقاذ زواجي قررت فصل الأمور بأن أبذل جهدي لأحاول التوافق مع زوجي في

الأمور التي تخص حياتنا معاً، أما حياتنا الاجتماعية، فقد حسمت بعد ما رأيت وسمعت في تلك الليلة ما كان فوق احتمالي وفوق قدراتي، فقررت أن أتجنب مثل هذا التجمع الساهر ما استطعت، وبدأت أشارك بين حين وآخر في سهرات في بيوت الآخرين حتى أعطي نفسي فرصاً أخرى قبل الحكم النهائي على هؤلاء الأصحاب المقربين لزوجي.

الأسلوب ذاته هو المتبع في كل تلك السهرات والعلاقات، خليط من الرجال والنساء يتحررون من كل شيء، الموسيقى الصاخبة الراقصة تصدح في البيت، جميع الموجودين تقريباً يتمايلون معها سكارى دون سكر، هرج ومرج وكأننا في مكان عام، بإمكان أي شخص أن يفعل ما يريد، متى يريد وكيفما يريد، يشرب، يأكل، يصيح، يرقص، يتظارف، يتدخل فيما يعنيه وما لا يعنيه، يدخل، يخرج، يتصرف بحرية تامة أينما وجد كأنه في بيته.

منذ اللقاء الأول أدركت أن الجسر بيني وبين هؤلاء الناس مهدم ولن يبنى. نظام حياتهم صعب أن يرتجل، يتعلمونه في بيوتهم منذ الصغر. الزواج في عرفهم جواز مرور لاكتمال المظهر الاجتماعي، المواصفات واحدة في الرجل والمرأة. مقابل أن يكون الرجل من الأغنياء والأسماء الكبيرة الذائعة الصيت، تكون الزوجة جميلة وأنيقة ومتحذلقة ودبلوماسية، تلوك في حديثها عدة كلمات من لغات مختلفة، ولا شيء آخر.

كنت أقضي أوقاتي بينهم أتأمل أفعالهم وأقوالهم دون أن أشارك، أبحث في دواخلهم عن ذاك الجوهر الذي تعلمنا في بيئتنا أنه يسكن الإنسان فلم أجد، كل منهم يقيم الناس بما يملكون ويتعالى على الآخرين كالطاووس، لو احتككت بواحد منهم لهالك أنه ليس أكثر من طبل أجوف. الزوجات دمى، ليس بينهن من تتساءل أو تعترض أو حتى تفكر بغير التفاهات التي هي جوهر حياة الدعة اللاتي يحيينها.

معاناتي تكبر مع الأيام، لم أعد أستطيع إذلال نفسي بقبول ما هو غير مقبول، أبتعد فأثير غضبه، وتشتعل في بيتنا حرائق لا تنتهي، أعاود المحاولة فتغضب نفسي على نفسي. لم أعد استسيغ طعم الأيام التي أعيشها، فأنطوي على نفسي حسرة وألماً، تموت أمام عيني أمنية عمري بأن تحتل حياتي مكانها الصحيح كشيء غال وله قيمة مثل القيم الأخرى التي هي أساس تواصلنا مع الآخرين ومع الحياة نفسها بأمان ورضا وحب.

بدأ زوجي يذهب إلى تلك السهرات وحده، وتغاضيت عن الأمر مرات ومرات حتى ابتدأت أسمع تعليقات حول قرب انفصالنا وعدم التكافؤ بيننا وكل المعاول التي تشهرها الناس على بيوت الآخرين دون وازع أخلاقي، حين لفتّ نظره لذلك فاجأني برد بارد أفحمني، قال :

– لقد أصبحت تسببين لي الإحراج أمام الجميع، فالأفضل ألا تذهبي معي إلى أي حفلة تقام إلى أن تقتنعي بأن الحياة الحقيقية هي

التـي أعيشـها وليسـت تلـك الثكنـة العسـكرية التـي تفرضـين علـى نفسـك العيش فيها.

رددت بأسف وفي صوتي برودة أشد أغاظته:

– أعتقد أن التغيير صعب، قل لي كيف يتم ذلك، وقد انتقلت فجأة مـن طفولـة حافلـة بالآمـال والأحـلام إلـى دنيـا عقيمـة مملـوءة بـالعجز والإحباط؟

لـم يـرد، تركنـي وذهـب، دون أن ينسـى أن يرشـقني بتلـك النظـرة الهازئة التي أصبحت تنصب على شخصي من قمة رأسي حتى أخمص القدمين، ومـع ذلـك هلعت لشـعوري الهامـد إزاء ذهابـه وحـده، كأنـه أمـر عـادي، إذ لـيس لـي مكـان وسـطهم ولـن يكـون، هـذه حقيقـة يجـب عـدم تجاهلها. ولكن هل سأرضى بأن أعيش العمر كله منفية عن الناس وعن حياة زوجي بشكل حقيقي؟

إننـي المسئولة الوحيدة عما أعانيـه، لا ألـوم أحداً سوى نفسـي، فقد أخطأت حين وافقت على الزواج، ووضـع أسس حياتي وأنا أعيش لحظة معانـاة ومرارة إثر فشل خطبتي لجاد، أسلمت قياد نفسـي المكسورة لمن حولي ليتدبروا أمرها، اعتقدت يومها أنهم سبب بلائـي، فتركت لهم فرصة إشـهار أفـول نجمـي كمـا أشـهروا بزوغـه ذات يـوم، ليـروا بأنفسـهم نهايـة المأساة التي صنعوها ثم تملصوا من عواقبها.

لم يصمد الزواج كما قدروا له، كنت وزوجي على طرفي نقيض، لم يحـاول تفهم وضـعي أو تغيير شـيء من أسلوب حياتـه من أجلـي. يومهـا

بدوت وكأنني فرس جموح صعبة الترويض، أردت الانطلاق خارج نطاق زمانه ومكانه الغريبين عني. كلمة واحدة وسقط كل شيء تحت قدمي. صرخ قائلاً:

- لا تريدين التغيير فأنت لم تنسه.

رددت بقنوط:

- بل نسيت! لكنك لا تناسبني، أريد الانفصال، فلست من أريد العيش معه.

حين خرج وصفق الباب خلفه، أيقنت أنها المرة الأخيرة. لم أشعر بخوف، بل شعرت بالتخفف من حمل ثقيل أنزلته عن كاهلي، لن أفتح مجالاً لمتسائل من منا المسئول، فقد أسعدني وأعاد ثقتي بنفسي أنني من دفع بالعربة إلى نهاية الطريق.

كبرت بسرعة أكبر من سنوات العمر التي تمر، لم أعد أعيش حياتي مثل أيام الحب الضائعة، بل إنسانة أخرى لا أعرفها بعد طوفان الغضب الذي صبه زوجي وأهله وأهلي على رأسي. لا يعرف أي منهم معنى أن يحرم إنسان من حقه في التعبير عن مشاعره دون إدانة. لم يعد أمامي من متنفس سوى الهروب من الواقع الأليم إلى أحلام يقظة أصل بها بين الماضي والمستقبل. أهفو لتوأم روحي الفريد البعيد بتوهج، ثم يبهت هذا التوهج مع محاولاتي الجادة لقمع تمردي على نفسي ذاتها، واستسلم لنهج حياتي الفارغة أبعثر بها عمري فيذوي شبابي وتضيع

أيامي. أبدو راضية، لكن لم يخطر ببال أحد أنه رضا من أحكم الحبل حول جسده وألقي وسط الموج الهائج.

سنوات طويلة مرت.. وعاد جاد بعد طول غياب. فجأة، استيقظ الهاجع بالنفس منذ أمد بعيد، واستقر بالقلب الذي دق بعنف أضحكني وأبكاني في آن واحد، انهارت القشرة التي غلفت بها إحساسي بالحنين إليه وعتبي عليه، أحسست للحظة، حين وجدته بيننا حقيقة قائمة، بأنه بقلبي كما كان، فرحت كفرح جميع الأهل بعودته، وأشاعت اللقاءات الأسرية المحببة الدفء الحقيقي فذاب الجليد عن الأيام والأحداث والنفوس.

تأملت العائد، مازال كعهدي به يحتفظ بمزيجه الغريب في وجهه، الضعف والقسوة، الجد والسخرية. عاد هارباً من أميركا مصطحباً ابنيه الشابين الصغيرين، ومنذ عودته وقصته على بساط البحث في المجلس العائلي، يبدأ الحديث عادة منذ البداية، والبداية تعني أنا وهو، حين كنت صنو روحه وعروسه المنتظرة، ثم غادرنا لإتمام دراسته في أمريكا، ثم يأتي الحديث عن انقطاعه عن دراسته، ويدور النقاش الحاد حول تلك الخطوة وإن كانت هي نقطة التحول في حياته، وهل كان يجب أن يستدعى للعودة على الفور؟ ثم يمتد الحديث إلى أن يصل إلى زواجه من أم أبنيه الأمريكية من أجل الحصول على الجنسية. حين تصل الأمور إلى الوضع الراهن، أنفصل عن الموضوع وأتوه وراء مأساتي،

عودته هارباً بابنيه وطلاقه من زوجته وفرارها بدورها مع ابنتهما، أمور لا تخصني، لكنها قد تساهم في تخفيف همي وبلائي.

حين أجالس ابنيه الشابين أجد نفسي أفكر بطريقة مختلفة، كان من الممكن أن أكون أمهما لو سارت سفينتنا مسارها الحقيقي، لكنه غاب وتزوج وعاد مطلقاً زوجته، وأنا داويت الإهانة بزواج لم يستمر أيضاً، لعل سبب طلاقنا واحد، فهل قدرنا واحد أيضاً؟

لقد قدم لي الشابان دون قصد ترضية من نوع ما عن فعلة أبيهما، رأيت أنه فعلاً قد خسر ولم يربح شيئاً كما توقعت، فهذا الشاب الأكبر الشرقي الملامح يشبه أباه والآخر أمريكي يشبه أمه، أهذا كل ما أراده؟

هززت رأسي المثقل بهمومي في محاولة لإيقاف نزف ذكريات جارحة رغم قدمها. هي عمري، ألغيت الزمان والمكان، عدت وراء سراب الطفولة. بدأت كعادتي منذ الطفولة، قبل اللحظة التي أفرد فيها جاد أشرعته بكل ثقة في رحلة الاغتراب.

تفتحت طفولتي وباكورة شبابي على وجود جاد في حياتي، وعت أذناي واعتادتا أنه لي وأنا له، كان جاد ذاك الشاب الوديع الساحر ابن عمي يؤمن على ذلك، ويتعامل معي وكأنني بعض من ذاته، يرعى تفتح أزهاري بنظرات جذلى طروب، علمني كيف أحبه، كيف أعيش به وله، خيل لي أنني أتنفس من أجله، كان أهلي وأهله يباركون هذه العلاقة المبكرة بفرح لا مزيد عليه.

دارت نظراتـي تراقب الحضـور، الحيـاد المخاتـل مرسـوم علـى وجـوه الجميع بإتقان، أسمع بين حين وحين رغم اضطراب أفكاري، لغطاً يتراوح بـين موافـق ومعتـرض، بـين ناصـح ومؤاخـذ، بـين شـاهد وقـاض. أقنعـتهم جـاهزة ليرتـدوها حسـب الـدور الـذي يقومـون بـه فـي كـل مناسـبة، فـي أي زمان وفي أي مكان.

بمثل هذه السمات التـي يمارسـونها بشكل عـادي وطبيعـي، سـاهموا في ارتكاب جريمـة زرعه هكذا بكل إصرار في كل خلية وعصـب منـي، وإلصـاقه بكيـاني حتـى الشـعور بالتوحد. هذه المداخلات التـي يمارسـونها الآن مارسوها في السابق حين سارت مقادير حياته عكس ما كـان متوقعاً والغـاني مـن حياتـه، لـم يـرحم أي مـنهم دمـوعي أو يأخـذ بيـدي، بـدلوا أقنعـتهم المطواعـة بسـرعة عجيبـة، ووقفـوا كمـا أراهـم الآن بعـدة نفـاقهم، عيون زجاجية باردة، شفاه ممطوطـة فـي استهتار مميت " ومـاذا يعنـي " يقولون لي، " فليكن ..انسه يا فرح، كان مجرد خطيب وفشلت الخطبة."

وحدي انحنيت التقط قلبـي المبـاح للألسن والأقدام بين كفـي مهرولـة بعيداً عنهم ألعق دمـاء كبريـائي الجـريح، وأواسـي نفسـي هامسـة بلسان جف من الهلع، وضلوع تفحمت حالما انفصل عنها،" أحقاً يا جاد كانـت مجرد خطبـة وفشـلت؟ أ كنـت مجـرد رجـل فـي حيـاة بنـت؟ ألهـذه الدرجة فقدوا إحساسهم فلم يدركوا ما فعلته كلماتهم بي؟.

أردت أن أصيح في وجوههم يومها، بأن هذا الخطيب، هذا الرجل، أصـبح نبضـات القلب والـروح منـي، لكن أحجمت حين رأيت تلك الوجوه

تبتعد عما بي وتعود لما كانت عليه قبل ذبحي كأن شيئاً لم يكن، كانت همسات البعض تأتيني من هنا وهناك شامتة أو مشفقة بتزلف بيّن، " مسكينة ليس لها من الفرح إلا اسمها"

مالت أمي نحوي بثقلها لتصل إلى أذني هامسة:

– كالعادة ترحلين مع الأوهام.

عادت لي نفسين فقلت بهدوء مهموم:

– حتى الوهم استعصى يا أمي من تعنت الزمن.

سقطنا في الصمت، أمي تحس بألم، أعرف أنها في أعماقها تندب حظ ابنتها الوحيدة الذي مال وهي مازالت في ريعان صباها ورونقها، أعرف أيضاً أنها تبرئ ساحتها وتتهم كل البشرية.

وصلنا الحديث الدائر بين الرجال الكبار، بنظرة شاملة أدركت أن كلاً منهم يحاول أن يستعرض معلوماته ويدلي بدلوه في المعضلة، النفاق سائد بشكل مخيف الفرحة البادية على الوجوه مرسومة أكثر مما هي حقيقية. نظرت نحو جاد، كان وحده بين الجميع فاهماً الاحتفال الذي حوله، متقبلاً الزيف بامتعاض غير خاف، صفحة وجهه تحمل مأساة تحطم بيته، هروب زوجته وابنته، سطوها على كل مدخراته خلال فترة زواجهما، ومقاسمته كل ما تبقى بأمر المحكمة .

أغمضت عيني، لا أعرف من أين أتاني كل هذا السخط، سمعت صوتي يقول: "يستحق ذلك وأكثر لقد باع بثمن بخس كل الحب الجميل" عادت ذكرياتي تنزف من جديد، كم كنت أضغط على عمري الصغير

واحمله فوق طاقته ليكبر بسرعة ويتجاوب مع حبه الكبير الذي يغمرني به صباحا ومساء. آمنت بكل ما قال من أن الحب يفجر الطاقات فتأتي المعجزات. عشت الحب الحقيقي، تذوقته، وأفنيت نفسي به تماماً كما وصفه لي، وكما أراده في أعماق الشعور.

وا أسفاه ..لم أجده وأنا واقفة بفزع على شفا هاوية بين موت وحياة، لحظة اختيار البديل له ولكل أحلامي وآمالي، لحظة لم تكن في حقيقتها سوى لحظة خيار في طريقة الموت، لأن كل الحلول ما عدا وجوده في حياتي تعني الموت، على الرغم من إدراكي تماماً لمعنى تخليه عني .

– دعونا نترفع عن اللوم ونكن واقعيين، عندها سنجد أعذاراً لشبابنا، لنعترف بأن فرض طفولة طويلة على أبنائنا سبب جوهري لا يجوز الاستخفاف به. تذكروا طريقتنا في معاملاتهم بين سن الطفولة وبداية مراحل الشباب، هل تختلف إحداهما عن الأخرى؟ لا أعتقد، لم نكن نسمح لهم بحديث أو إبداء رأي، يعني بصراحة كنا وما زلنا نؤخر نضوجهم الكامل بمصادرة حرياتهم، لا نسمح لهم بكلام أو نقاش، لا نتركهم يعتمدون على أنفسهم في تصريف أمورهم، كل ذلك للأسف الشديد لاعتقادنا –الخاطئ طبعاً– بأن في ذلك قلة أدب وتجاوزاً للحدود.

وجدت أفكاري ذاتها التي تشغل بالي محور الحديث، وهذا المتكلم آنفاً يحاول تلطيف جو التأزم الذي يبدو أنه وصل إلى حده قبل أن أنتبه

لما يقال. يرون مشكلة جاد أكبر من تحطم قلبي وحياتي وتفتيت عمري، بدت الأمور بين أخذ ورد فشاقتني المتابعة.

كان الجو العام يسوده بعض ود وتفاهم، فجاء الحوار أكثر جدية ومنطقية. قال عمي أبو جاد وكبير العائلة:

– لا أوافقك على ما قلت من أن الحرص على تربية الأبناء يعني استغراقهم بطفولة طويلة، ما نفعله هو غرس قيمنا وأخلاقياتنا في نفوسهم، والآن هي المستهدفة أصلاً, إنها مؤامرة مدبرة يريدون تدمير نفوس الشباب.

بدت الفكرة معقولة، خاصة أنها تناسبني، حيث اعتبر أن جاد لم يتخل عني مختاراً بل تحت ضغوط تغلبت عليه بسبب قلة الوعي، فسببت له الضياع بين ما عاشه وتعلمه في بلاده وكل هذا المباح .

فوجئت بأبي يتكلم بعصبية، وهو قلما يخالف رأي أخيه الأكبر:

– لم يحدث أن سمعت أباً يفكر بجدية حين تسنح فرصة لابنه للدراسة في الخارج بكيفية تهيئته لتلك التجربة، بل على العكس، أجده مغتبطاً فرحاً كأنها الفرصة الذهبية، وقد سمعت مراراً بعض الآباء يرددون بفرح الأخبار التي ترد من أبنائهم أنفسهم أو أخباراً عنهم يهزون رؤوسهم طرباً ويصفونهم بأنهم "مقطعون السمكة وذيلها" يباركونها مبررين لهم كل خطوة يخطونها هناك دون تقدير للعواقب.

قلت مؤيدة أبي هذه المرة:

- أبي عنده حق. لو هيئ الشاب المسافر لتحمل مسئولية الغربة ومسئولية التحصيل العلمي لعرف كيف ينجز ما سافر من أجله، سيقدر معنى الفرصة التي أعطيت له ليعود أفضل. كل ما يعوزه وقتها تحكيم عقله في المفاضلة بين الصالح والطالح في كل ما يصادفه هناك.

ساد صمت، بينما نظرات الجميع متعلقة بوجهي، أدركت أنني كنت أتكلم بانفعال، من منطلق شخصي بحت، وأنني أتظاهر بأن الحديث موجه للجميع بينما هو في حقيقته لذلك الإنسان الذي عاد مهزوماً. وجدت جاد يستشف من نظراتي التي تحمل اتهاماً صارخاً بأن كل آلامي كانت بسبب عدم وعيه لمسئولياته.

فهم الرسالة غير المقصودة، أو لعلها خرجت من اللاوعي، بأنني أشكو أو ألوم، فقد استدار نحوي بمقعده متجاهلاً تحاملي وواجهني قائلاً بوهن:

- أعذرك .. صعب جداً تقدير الأمور لمن لم يمر بالتجربة حقاً، فكري قليلاً بالصعوبات التي نصادفها في مجتمع يرفضنا، ينظر إلينا على أننا الأقل، يرفض سلوكياتنا وأفكارنا، بعدها ستقدرين كيف نجد أنفسنا علامة فارقه وتائهة في وسط نتلهف للاندماج فيه لإيجاد موطئ قدم بينهم حتى نحقق ما ذهبنا من أجله.

لم أعلق، تركته ينتظر الجواب أو على أقل تقدير ينتظر مسحة ما على وجهي توحي له بالاقتناع بما قال، ما زالت عيناي تحملان له الاتهام المثقل بألمي، فعاد لمحاولة الشرح من جديد:

- صدقيني! كل شيء هناك مختلف ويفرض نفسه مهما قاومنا، كل شيء يضغط بثقله علينا فلا نجد وسيلة للتخلص من الضغط إلا بالرضوخ للتجربة. هذا الرضوخ ليس له من تفسير سوى الفرار من كل شيء، حتى من جلودنا وألواننا وأفكارنا، كل شيء حولنا يسهل لنا الفرار ويساعدنا عليه.

أطرقت هاربة من نظراته المستجدية العذر، وانطلقت عبر ذاتي أرصد معاناتي. نعم لقد رضخ ودفعت أنا الثمن، لقد خبرت ذلك جيداً، فرسالته الأخيرة ماثلة أمام عيني رغم السنين " فرح.. أحلك من الوعد والعهد، قررت ترك الدراسة وسأتجه إلى العمل. التحصيل العلمي مرض شرقي يجب التخلص منه، هنا تعلمت بعد هذه المدة الطويلة رغم تفوقي في الدراسة، أن قيمة الإنسان فيما يكسب، سأتزوج زواجاً شكلياً من أجل الحصول على الجنسية، حتى يكون العمل الذي سأقوم به قانونياً." في ذلك اليوم هاجت كل النفوس أياماً معدودات ثم هدأت. أنا فرح المتضررة الوحيدة، لم أنس ولم أغفر.

انفضّ المجلس، لكن ليعود للانعقاد من جديد، لم يأل جاد جهداً في محاولة الإسهاب في شرح أسباب تصرفه تجاهي لعلي اقتنع وأجد له العذر. كل ليلة كنت حين ألجأ لغرفتي وأنفرد بنفسي أعيد تقييم الموقف من جديد. يرفض عقلي التفكير بمنطق القلب، أعني بمنطق جاد الذي يمارس عليّ الابتزاز العاطفي، بل أعطاني حجة أقوى من جرحي لأراه دون تلك الهالة التي كنت أسبغها عليه، ليس هناك جديد، الحياة هكذا،

في الغربة لا بد أن يتعرض الإنسان لأشياء مثل هذه، ولا يسقط إلا من عدم الثقة في نفسه وبمبادئه وقيم مجتمعه. قد أجد العذر لإنسان وقع لكنه استدرك وثاب إلى رشده، خشي المهاوي التي سيتطوح بها آخر المطاف. وأستطيع أن أتفهم من عاد إلى بلاده حاملاً أعلى المؤهلات ولم ينل التقدير الذي يستحق، ولم يعط دوراً حقيقياً للإفادة من علمه والتخلص من التخلف المخيم على حياتنا فأصيب بخيبة أمل، فضل الهجرة، والعودة إلى الغربة والبقاء هناك.

بدأت الحياة تسير بشكل طبيعي افتقدته زمناً طويلاً، وجاد يتحسس طريقه إلى قلبي مرة أخرى، فأجد نفسي توسع له مكاناً من جديد، استمتع بكلمات الحب والندم والحزن على السنوات الضائعة، كأنني أحيا من جديد مما أدهشني أنا نفسي فكيف بمن حولي، ظن الجميع أنني بانتظار الحدث الذي حلمت به بعدما لاحظوا حبوري وإشراقي كيمامة وقد عاد إليها وليفها.

جاءت اللحظة الوعد.. هل سارت الأمور بشكل تلقائي، أم هيأنا لها أنا أو جاد أو الأهل مرة أخرى؟ لم يعد لذلك أي أهمية، فالمهم أنها جاءت حاسمة تحمل في طياتها الشفاء لقلبي العليل. وجدت نفسي وحيدة وبعيدة على الرغم من وقوف جاد ممسكاً بيدي بين يديه، معلناً أمام الجميع انتهاء فترة العذاب والاغتراب، ها هو يعود نادماً آسفاً حيث توقف عمره وعمري، يعود ويطلبني ويتوسل إليّ أن أقبل به زوجاً .

كم عشت بانتظار تلك العبارة، كم عشت أتخيلها وأتفنن بالرد، كم كان الجواب جاهزاً يتراقص على شفتي، وكم حلمت أن لساني سيتحرك بكلمة واحدة "نعم أوافق فأنت من اختاره قلبي منذ أن تعلم النبض من أجلك" تجمدت في مكاني، أحاول أن أنطق فلا أستطيع، أحاول أن أرد، أن أفرح، أن أصرخ، أن ألقي بنفسي بين يديه، فلم يحصل شيء مثل هذا، كأنني إنسانة أخرى، كأنني فرح قبل خمس عشرة سنة ورسالة حبيبها بين يديها تذبحها كل كلمة بها، لا بل كل حرف، لا ليس بنفسي أي صدى لسؤاله، تركت يدي ساقطة بين يديه بلا أدنى انفعال بل أكثر من ذلك، شعرت بيديه باردتين نديتين بالعرق غريبتين عني أثارتا اشمئزازي، لم أتعرف عليهما، ولا أحس بهما، ولا أريدهما و..ولا أحبهما.

- لا..

قلتها وكأنني أصرخ، كأنني غائبة عن الوعي:

- لست الإنسان الذي أحببت وانتظرت بل أنت من هجر ونسى. كنت الحب الأول البريء في حياتي، سيطرت على مشاعري كل السنين الماضية، وحبستني داخل دائرته المغلقة.

- أنا جاد حبيبك، وها قد عدت إليك.

- لكنك لم تعد من أجلي، عدت لأنك فشلت في دراستك، عدت لأنك فشلت في اختيار الزوجة المناسبة، عدت لأنك فشلت في المحافظة على أسرتك. نعم عدت ولكن ليس كما ذهبت عدت مكسوراً، على الرغم من أنني عشت أكثر منك فشلاً وانكساراً، كنت أكبر ووعيي يتفتح،

عواطفي وقفت كما تركتها عند طفولتها بانتظارك، حبيسة وهم كبير ..اسمه جاد. الآن في هذه اللحظة أراك بعيني الواعية، أجدك إنساناً عادياً، لا بل أقل، أضعت الفرص وقد هيئت لك لتعود أفضل وأحسن، سقطت عند أول منزلق.

سحبت يدي من بين يديه وتنفست عميقاً، وانبسطت أسارير وجهي، عاد الدم الهارب مني يتدفق في شراييني حاراً غزيراً بعد النزف، تفرست في وجوه من حولي، فاجأتها لقد كانت مستعدة لتشارك بالفرح المتأخر سنوات عمري كله، سمعت لساني يكرر بتمهل ويتلذذ بطعم الحروف:

– لست أنت من اخترت وأحببت. لست أنت من عاش في القلب العمر كله. صعب جداً أن تجدني كما تركتني.، كنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري، والآن تجاوزت الثلاثين، مصيبة حقيقية لو حصل ووجدتني مثلما تركتني، الآن لا أجد فيك ما يستحق النصف الآخر من حياتي، يكفي أنك دمرت النصف الأول .

رسالة محتضر

يا سيدة العصر...

أخيراً استسلم الطبيب لرغبتي، وسمح لي بكتابة هذه الرسالة إليك، إذ ليس من الممكن أن أرحل بسلام دون الإفضاء لك بما يعتمل في صدري من همّ وندم. أرجوك أن تثقي بصدق ما سأكتبه لك، وأرويه لكل من عرف بقصتي معك، وإلى من لم يعرف بها.

أخصك يا سيدتي الرائعة باعترافاتي. وأولها أنك بقدر ما أشعت في جوانب نفسي الرغبة في الحياة وفي الحب – بعد أن تخطيت كهولتي بزمن طويل– بنظرة أمل أطلت من عينيك، بقدر ما بعثرتها من الرعب والذل، بنظرة أخرى مغايرة لها تماماً مليئة باليأس والخذلان.

هل ما حصل بيني وبينك مجرد قصة تروى؟ أعني أن لها بداية وعقدة ونهاية أم أنها حدث عابر؟ هل حططت رحالك عندنا بعد هجرتك من دياركم مصادفة أم لاعتقادك بأننا مسئولون بطريقة ما عن بعض ما أصابكم؟ لو قلت لك لا أعرف أكون كاذباً، وإن قلت لك كنت عارفاً أكون كاذباً أيضاً، وقد وعدت أن أقول الحقيقة ولا شيء سواها.

الحقيقة أنني لم أكن أعرف الجواب في ذلك الحين، لسبب بسيط جداً ومعيب جداً، وهو أن السؤال نفسه لم يرد على خاطري. نعم إلى هذا الحد وصل بنا الاستهتار بكل شيء ما عدا زيف الحياة ولهوها، لكنني الآن أعرف، نعم لم تأتنا إلا لثقتك بأننا ساهمنا في الطعنات التي تلقيتها وأهلك وأرضك.

قد تدهشين إذا عرفت أنني كنت أعرف قصة معاناتك ومداها وعمقها، قبل أن نلتقي ومن بعد أن التقينا، فأنا نفسي قد دهشت، لكن حاشا لمثلك من الغفلة والضعة والهوان ومن كل ألوان التشتت التي أغرقت نفسي بها قبل عودة الوعي.

القصة حقيقية، قصة طويلة قديمة جديدة، مازالت مستمرة، وستبقى معلقة حتى يأتيك الفارس الحقيقي، خيل إليك يا فاتنتي في لحظة، وقد ملأ القنوط قلبك ووجدانك أنني هو، وما كنته ولن أكونه. أليس من المستحيلات أن أجابه بمنتهى الضعف منتهى القوة ؟ صعب.. صعب جداً، لكنك لم تصدقي، بل أكدت بنحيبك المتواصل أنني خذلتك.

على فراش الموت أرقد، سينفد سهمه وهذه سنة من سنن الحياة، الموت نهاية كل حيّ ولكنه يكون أكثر ضرورة لنهاية ميت، أنا هو ذاك الميت الحيّ منذ أن انتهكوا حرمة بيتي وأخذوك مني، انتزعوك بوحشية، سلخوا جلدي عن عظمي، وعجزت عن حمايتك. سنوات عمري كلها، تلك التي عشتها قبلك وبعدك وإلى الآن، تجسدت كلها في وجداني في لحظة زمن عذبتني، لحظة حاسمة لن تموت إلا بموتي، لحظة خوف أو ضعف أو حب أو غضب أو مذلة ومهانة، بل إنها كل ذلك في عمقها وفي وهنها، أرخصت معنى وجودي.

السواد يجلل المكان، بالكاد أحاول أن أرى أوراقي، لا بد من تدوين هذه الرسالة حتى النهاية، طبيبي ما زال يبذل قصارى جهده في محاولة علاجي، ولكنني لا أريد الشفاء، فالداء ليس مرضاً عارضاً، بل هو مرض النهاية، لم أعد أريد شيئاً إلا النهاية.

حين عرف بعزمي على كتابة رسالة مهمة حذرني، وأكد أنه غير مسئول عن المضاعفات التي قد أتعرض لها. هولا يعرف حجم الكارثة التي حلت بي، ولا التدمير الداخلي الذي أصابني، ولن أخبره. اخترت أن أخبر صاحبة الشأن.. وأنت هي.

سأصف لك بكل إخلاص وبمنتهى الدقة لحظاتنا الأخيرة معاً. ربما كان الانطباع الماثل في ذهنك عنها أنها لحظة فاصلة زهقت الحق للأبد ورفعت الباطل لعنان السماء، ببساطة لم تعد تعني لك بأكثر من لحظة خذلان لك من الدنيا وممن استجرت بهم. بالنسبة لي كرجل اعتاد أن

يجد مخرجاً لكل مأزق يقع فيه، برؤية جانبه الإيجابي، ليريح ويستريح، فالموقف مختلف فقد أرتج عليّ الأمر.

بعد أن كاد الألم والندم ينهشاني، رأيت أنها كانت لحظة رائعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، تجسدت روعتها عندي في الإحساس الخارق الذي غمرني وقتها بصدق نيتي، كرجل أمين ومخلص، وبعيداً عن كل رغبة من الرغبات التي راودتني للفوز بك في بداية معرفتي بك.

عشت بيننا سنوات طويلة لم تهادني ولم تيأسي أو تتهاوني. صممت أذني عن كل ما قلت وشرحت، لم يشفع لك عندي بأنك وهبت كل ذاتك لقضية، لفكرة، لوطن، لأرض، رغبتي القاتلة فيك في جمالك وفتنتك استعرت بوجداني، فأردتك لنفسي بأي ثمن.

لكن في اللحظة الخالدة، غلت الدماء في عروقي، كنت على أتم الاستعداد لأن أفتديك. كنت أظن أن وصولي إلى مثل تلك المشاعر قد تحتاج مني العودة للوراء سنوات طويلة نسيت عددها، تحتاج إلى جهد خارق لأصير على مستوى الأحداث التي تجري أمامي. المشاعر التي طغت على أحاسيسي بشرت بأننا ما زلنا بخير، شعرت فعلاً بحماسة غير عادية، ووجدت أنه من المخجل ترك إحساسي بالرغبة فيك يطغى على واجباتي تجاهك.

هل تدركين الآن لماذا اعتبرتها لحظتي الرائعة؟ سأجيبك، لأنني تخطيت كل الخواء والهوان بسهولة، ودون أي عناء، وفكرت بأن

أساعدك وأخلصك وأحميك. على الرغم من عدم جدوى ما فعلت آنذاك من إنكار ذاتي ونزاهتي، مع خذلان الأهل لي ولك.

هل تذكرين تفاصيل تلك الليلة المشؤومة؟ إنها ذكريات لا تنسى، ومع ذلك دعيني أكررها على مسامعك مرة أخيرة لتعرفي أين أنا من نتائجها. حين رفعوا الحصار من حولي وحولك واستجابوا لرجائي بأن أتفرد بك بعض الوقت ثم نعود ونعلن لهم قرارنا فررت بك إلى بيتي، بيتي الذي لم تره طول مدة أقامتك بيننا، بيتي الذي كان يتلهف لهفة صاحبه على ضمك بين جدرانه، بيتي الذي أسميته "عرين الأسد".

ظننت أن بإمكاننا أن نحتمي خلف أبوابه من الخطر الداهم، أردت أن أخبئك وأذهب لإقناع رجالي بنجدتك، لكن لم يمهلوني. لعلهم قد غيروا رأيهم بعد ذهابنا فألغوا الفرصة التي منحوها لنا، أو لربما بعض رجالنا بثوا الخوف في نفوسهم من أن تفتح هذه الفرصة ويلات هم بغنى عنها، لا أعرف ما الذي حصل حتى قرروا مداهمتنا فجأة ونقض ما وعدوا به.

رأينا خيال أحدهم يمر من أمام نافذتي ثم آخر ثم تتابع الآخرون، مجموعة مسلحة ومجردة من الحس الإنساني. اتجهت نظراتك المترقبة نحو الباب الموصد بإحكام، ثم ألقيت رعبهما في عمق عيني، أمسكت بيديك لأطمئنك، وجدتهما مثلجتين ترتعشان في كفي، كان لك كل الحق، دارت عيناي في محجريهما تبحثان عن مكان أمين أخفيك فيه،

لم أجد. شلت حركتنا، تشبث كل منا بالآخر، انطفأت نظرات الأمل في عينيك، وأدركت بدوري أنها النهاية.

فتح الباب بضربة قوية من أقدام مدربة واقتحموا المكان، كنا في مواجهتهم عزلاً ومنفردين. تقدم كبيرهم ومد يده لينتزعك مني، قبل أن أبدي حراكاً رأيتك تتراجعين قليلاً إلى الوراء بشكل تلقائي، وتنحنين قليلاً ثم اعتدلت شاهرة بيدك منحوتة لرأس امرأة باهتة المعالم كأنها بانتظار من يؤجج الحياة في عينيها الناعستين، انتزعته من الزاوية بخفة رغم ثقله، دون تردد هويت به بكل ثبات وقوة على رأس القائد الممسك بك، فتدفق الدم في كل مكان حوله، تم ذلك كله في لحظات معدودة قبل أن أدرك تماماً ما الذي يجري.

ترنح جسده وسقط بين أيدي مرافقيه، وبينما كانوا يحملونه إلى الخارج، تنبهت إلى أن النظرة النهمة التي كانت تشع من عينيه على جسمك تلعق كل جزء فيه غابت خلف الجفون المسدلة وسائرة نحو غيبوبة أملت أن تكون أبدية.

ما زلت مأخوذاً بمثل هذه البطولة، فقد فقدنا من زمن بعيد الحس بمشاعر الحميّة التي تحركها وتأججها، كذلك مرت بذهني لثوان قليلة وداعتك ورقة طبعك وكراهيتك للعنف إلى درجة الخوف. كان الموقف كبيراً، فزعت أول الأمر حين رأيت التمثال مرفوعاً بيدك، ثم أراحني تحطمه فوق الرأس الممتلئ غروراً وغلاً وحقداً أسود.

تقدم منك الآخرون بعد أن فرغوا من إبعاد قائدهم عن المكان، قفزت من مكاني بهمة شاب وحلت بينهم وبينك ولكن هيهات، ضربني أحدهم بمقدمة رشاشه فأوقعني أرضاً، حملوك قبل نهوضي ومع ذلك لمحت وجهك وقد غمره ضياء غريب، مسترخ وهادئ، بينما كنت منكمشاً على نفسي رعباً واندهاشاً.

من ومن أنادي الآن؟ من سأنبه أن الأمر خطير؟ أخطر من تشرد جماعة وترحيلها ولجوئها إلى حمانا ثم الحدب عليها وإيوائها وينتهي الأمر. هذا الأمر سيتكرر وسيبتلعوننا واحداً بعد الآخر، هكذا كل بساطة، هكذا يجب أن يفهم، هكذا يجب أن يعالج.

أريد مشاركة كل الأطراف، من أصحاب الرأي المحلي والعالمي.. هل يسمعون؟ هل يقدّرون اعتراف رجل على فراش الموت بين يدي خالقه، لا يكذب لا يماري، ولا يداهن؟ لا أعرف ماذا سيكون رأيهم بي ولا بما جرى ويجري، لكنني أعرف المثل القائل إن البقرة حين تستلم للذبح تكثر سكاكينها.

لم أعد أهتم لشيء، لا شيء على الإطلاق سوى قول الحقائق التي عشت عمري أغفلها، حتى مع سيدتي الفاتنة. بعد أن سيقت أمام تلك الحثالة وجدت نفسي على علم بأدق تفاصيل مأساتها ربما قبل أن تفطن لها هي وأهلها، أعرف حقيقة الموقف كاملة، أعرف المؤامرة التي تحاك ضدها يشترك فيها القاصي والداني، كنت أعرف ذلك وأكثر قبل

أن تأتي إليّ وبعد أن جاءت وشرحت وأسهبت، عذرت نفسي أنني لم أفهم، الآن أدرك أنني كنت من أشد المتواطئين غفلة .

كلكم دون استثناء تعرفون قصتها مع هؤلاء الشرذمة مثلي ربما أكثر، وكلكم دون استثناء تجاهلتم واستسلمتم مثلي وأكثر، لكن ثمة فرقاً بيني وبينكم، أنا أحببتها، وربما كانت غلطتي أن نفسي اشتعلت رغبة همجية فيها، بينما أنتم بعتم وتآمرتم على تسليمها وأخذتم الثمن عداً ونقداً.

هل تذكرون شيئاً مهمّاً حصل قبل سنوات من الآن؟ إنه البيان الختامي الذي وصلنا جميعاً عن تنفيذ المؤامرة ووضعنا جميعاً بالصورة، عودوا إليه الآن كما فعلت ستجدون مؤرخاً بتاريخ تلك الليلة التي جاءتنا فيها مع عشيرتها طالبة الحماية. لا تنسوه أرجوكم، فقد تناسيناه دهراً. ربما فضلتم أن أسميه تقريراً، فليكن. أعرف أنه وصلكم كما وصلني في حينه، ومتأكد من أن أحداً منكم لم يفتحه ويقرأ ما جاء فيه مثلي تماماً، وإلا لكنا قد علمنا الأوامر الصادرة منهم إلينا بوجوب حسن استقبال الوافدين إلينا، ولم ننتظر الأوامر غير المباشرة والتي على إثرها رضخنا وآويناهم.

الآن وبعد أن قرأته مرات ومرات خلال تلك السنوات المنصرمة، وتعذبت وندمت ومرضت، أود من كل قلبي نشر شيء مما ورد فيه على الملأ، لتكبر الإدانة، ليتضح زيفنا وغدرنا، أو لعله ضعفنا ووهننا، أو

لعلـه فقـداننا العـزة والكرامـة، أو أي مـن القـيم التـي اتصـف بهـا العربـي قديما، لم يعد يهمني، أبداً لم يعد يهمني شيء سوى الخلاص الروحي.

جـاء فـي التقريـر: نحـيطكم علمـاً بأننـا قـد قمنـا بتنفيـذ كـل مـا تـم الاتفـاق علـى تنفيـذه مـن طرفنـا مقابـل السـكوت مـن قـبلكم. ففـي قرابـة السـاعة الواحـدة مـن يـوم الجمعـة تحركـت فرقنـا المهاجمـة الـثلاث مـن قواعـدها، واتجهـت كـل فرقـة إلـى موقعهـا المحـدد فـي أطـراف البلـدة أو وسطها حسب خطة الهجوم.

سـاعة الصفر هـي الخامسـة والنصف من الصبـاح، انطلقت الفرقـة الأولـى لاقتحـام البلدة من الشمال الشرقي ومحاصـرة المنـازل علـى يمـين الطريق، والفرقة الثانية انقسمت قسمين، أحدهما يقوم بحركة التفافية من الجنوب ليقتحم أعالي البلدة الغربية والآخر يقطع الوادي الفاصل هبوطاً وصـعوداً ليقـتحم البلـدة عنـد الجـامع الرئيسـي والمدرسـة، المصـفحة تنقل قسماً منهم إلى وسط البلدة يلحق بهم المشاة.

كانـت الخطـة كمـا اتفقنـا تقتضـي ألا يباشـر إطـلاق النـار إلا بعـد التمركـز تمامـاً فـي المواقـع المحـددة. كانـت الإشـارة المتفق عليهـا ضـوء ينطلق من المسجد، وكلمـة السر بين المهاجمين بأن يقول الأول "وحدة" فيـرد الثـاني "قتاليـة". ولكـن حـدث شـيء مفـاجئ فتغيـر الموعـد المحـدد بطريق الخطأ أو المصادفة البحتة.

اهتاج أهل البلدة، لا أحد يعرف كيف، لعلهم اشتموا الرائحة، لعلهم كانوا علـى يقظـة تامـة، لكننـا قد حسبنا لكل شـيء حسابه، حتـى هذا، لم

نبال، نعرف مسبقاً أنها لن تجديهم نفعاً. صرخ واحد منهم العدو العدو، ظن رجالنا القريبون من تلك المنطقة أن أحد منا يقول كلمة السر، أجبناه واندفعنا اندفاعة رجل واحد. كانت المقاومة شديدة على الرغم من قلة السلاح وبدائيته بين أيدهم، ماذا يفعل الرشاش الستن أو البرن في مواجهة أسلحتنا الحديثة مدافع لويس كما تعرفون.

الكلام في سركم لقد نفذ الاحتلال بوحشية، عائلات بأكملها قتلت، تكدست الجثث بعضها فوق بعض، فر بعض العائدين إلى البلدة في الضحى. جاءنا أمر بالانسحاب بعد نفاد ذخيرتنا ووقوع كثير من الضحايا في الفرق المهاجمة بيد القناصة المهرة، لكننا رفضنا، فقد كنا داخل البلدة تماماً والبلدة خلت من الأحياء تقريباً.

ملحوظة: حين يصلكم الفارون واسوهم وآووهم وستقوم لجان مخصصة لصرف معونات لهم، لن يكلفوكم شيئاً، بل على العكس ستكون المنح أكبر لكل من يستضيف عدداً أكبر.

هل يستطيع أحد منكم أن ينكر أنه كان يملك مثل ذلك التقرير؟ لا أعتقد، فقد كان يزف لنا البشرى، وأنه طالما تم كل شيء حسب الاتفاق والخطة الموضوعة، فتنفيذ باقي الاتفاق قائم، سيدفعونه لنا، كرجال شرفاء وعدوا، ولن يخلفوا وعودهم.

سأحكي لكم عنها لتعرفوا حقيقتها، ولتعرفوا بأي صنف من الناس قد قامرنا، وسأحكي لها عن نفسي لأبرر استسلامي، مع إن الحديث في الحالين موجع يثير الألم. حين أكلمكم عن لحظة حاسمة تماماً في

حياتي وأخبركم ببساطة أنني تجاوزتها بإعجاز، أريدكم أن تتفهموا ما حدث تماماً، فهو لم يكن بالسهولة ذاتها التي قلتها، كان الموقف صعباً، كان يحتاج لحضور وقوة وحزم.

إذن .. أستحق أن تكنوا لي التقدير والاحترام، وما دمنا "كلنا في الهوا سوى" فأنتم أدرى بمعنى أن تستحضر كل ذاك في لحظة وتهم به، وهذا ما لم نقدر عليه جميعاً، وفي أشد الأيام سواداً، جلّ ما كنا نفعله ليس أكثر من ترديد كلمات التنديد والشجب والاستنكار مثل ببغاوات، دون فهم معانيها، دون تقدير لنتائجها، كانت تعني لهم إشارة البدء، تطلق بعدها اليد القوية، تعيث في أراضينا نحن لا غيرنا الفساد، الرعب والقتل الجماعي. كلامنا غير المسئول كان يلغي وجودنا الفعلي والعملي كما هو منوط بنا أن نكون.

إذا كنتم مستمرين في متابعتي فهذا يعني أنكم عرفتم الآن أن اللحظة الحاسمة جاءت في وقت كنا فيه مهلهلين بعد السقوط، قراصنة متع ولهو، نبحر هكذا بلا خجل ولا ورع وراء متعتنا من بحر لآخر، فنغرق في بحور العجز الطاغي في زمن الشراهة والقهر.

الآن وفي هذه اللحظة تنسكب دموعي حارة وغزيرة، تتحرر من مقولة أن الرجال لا يبكون، تسيل على وجنتي ثم تنعقد جدولين صغيرين عند لحيتي، وتتوالى النقطة تلو الأخرى، أراها تستقر فوق هذا الورق الذي أدون عليه خذلاني، فأتركها شواهد على صدق بثي وحزني. هذه ليست المرة الأولى التي أبكي فيها، فقد بكيت أول مرة بعد فرارهم بها

حين أحسست بأنني أسير شيخوخة عقيمة نخرت عظامي، فأذلني القهر والعجز، وليس ذلك بمستهجن على من كان فارساً قديماً، قبل الانزلاق إلى المنحدر.

بمنتهى الصدق أكتب أدق أسراري، بل أخشى ما أخشاه ألا أستطيع تطويع الكلام ليعبر عن الإحساس الموجع في أعماق وجداني، عجز لن تداويه شكوى أو ندم أو اعتذار. لا أعرف من أين أبدأ. فإذا كان كلامي موجهاً إليها فسأحكي عن بداية السقوط، وبالتحديد بعد خروجنا من الضنك المادي المزمن بتدفق الأموال التي أهلتنا للدخول إلى حياة الدعة والرغد. لم تطلق أيدينا تماماً إلا بالأموال وهي أساس كل مفسدة، خاصة إذا ما جاءت بعد فقر وجوع إلى قوم مصابين بالجهالة والعمى الحضاري.

أيد كثيرة كانت فوق أيدينا وأقوى منها في كل مناحي حياتنا. صحيح أنهم رفعوها عنا بعد سنوات طوال ورحلوا، لكنهم رحلوا مطمئنين إلى أننا في قبضتهم وسنبقى لأجيال وأجيال قادمة، فقد تركوا جراثيمهم تحت جلودنا تنخر فينا، معجونة بحبات تراب الأرض، ومختبئة بكل نجمة من نجوم سمائنا، مهما ابتعدوا ومهما تحررنا، فأين المفر منهم سوى إليهم؟ هذه الحقيقة الأولى التي لم أعترف بها إلا الآن.

إذا كان حديثي موجهاً إليكم يجب أن أشرح لكم قصتها معي منذ حضورها ولا أظنكم تجهلونها، أو تستطيعون بعد اليوم أن تتجاهلوها،

وكلـي أمـل بـأن تكونـوا قد أمنّتم علـى الحقيقـة الأولـى التـي اعترفت بهـا بالأصالة عن نفسي ونيابة عنكم.

أعود إليك سيدتي قبل أن يأخذك حسن ظنك إلى أبعد مما كانت تصـل إليـه نوايانـا فـأقول دون مواربـة: لا تتفاءلي، لـم تكـن الحريـة التـي منحـت لنـا تهمنـا فـي شـيء سـواء كانـت مطلقـة أم مقننـة، بـل ولـم نفهـم معنـى لهـا ولقدسـيتها، ضـللنا أنفسـنا بـأن الأمـر أصـبح لنـا، لـم نتسـاءل وقتها، بل لعلنا لم نتساءل جزءاً من تركهم لنا، كجزع الفطيم عن صدر أمـه، وكـان الحـل بـأن القينـا أنفسـنا إلـى صـدورهم نعـب منهـا عبـاً، ومـع الأيـام أصـبحت رفـاهيتهم جـزءاً لا يتجـزأ مـن أسـلوب معيشـتنا، دخلـت الأموال إلى كل الجيوب وإلى كل البيوت، وومضت بهجة الحياة السهلة في كل نفس وبيت، وهذه حقيقة أخرى.

أما عنكم.. سأبدأ بإخباركم عن يوم بعيد، يوم بذاته، كـان مختلفاً عن باقي أيامنا التي تشابهت ساعاتها ودقائقها وأحداثها. كنت عائداً إلـى الواحـة علـى صـهوة جـوادي الأشـهب الأصـيل بعد انقضـاء رحلـة الصـيد الموسمية التي أقوم بها برفقتكم جميعاً في مواعيد ثابتة، محلقاً فـي جو مـن الرفاهيـة لا يوصـف، مزهـواً بصـيد وفيـر وهـو جـلّ مـا نقـوم بـه مـن عمل. فجأة أشـار إلـيّ خـادمي الخـاص صـائحاً " سيدتي لقد وصـل من كنت بانتظـاره " نظرت إلـيّ بانتبـاه ونظـرت بفضـول، كنـا كثـراً، لـم يلحظ محـدثها إن عرفتنـي مـن بـين رهطـي أم لا فعـاد يقـول" هـو ذاك السـيد، الرجـل المهيـب الطلعـة الطويـل القامـة الـذي يمتطـي صـهوة حصـانه فـي

الوسط" تركها وتقدم نحوي، أمسك بلجام حصاني وساعدني في وضع قدمي في الركاب فقفزت متظاهراً بالنشاط والقوة فقد كنت في حضرة شابة رائعة.

وقفت في مكانها ببهاء، منتظرة أن أفرغ من أوامري لرجالي وأستمع لها، كان ذلك في نيتي والله، لكن حين اقتربت أكثر لم يتبق بداخلي سلام ولا كلام، فقد ارتج عليّ الجمال والكبرياء، وأتاني صوتها جريئاً قوياً واثقاً. كل ما فيها كان يشارك في الكلام، العينان الوجه اليدان الجسم الشعر، هل سمعتم من قبل عن شيء كهذا؟ لا أظن، فأنا نفسي لم أر أحداً يتكلم بهذه الطريقة، في ذلك اليوم احترت لمن أنصت ولمن أستمع، وانغلق عليّ الفهم.

يا سيدة كل أوان وزمان..سأقول الحقيقة فاستمعي لها، وأنصتوا بدوركم، لعلكم مررتم بمثل هذا الموقف وتجاهلتم كما فعلت. لقد استمعت لك جيداً، بل لم تفتني عبارة واحدة ومع ذلك تجاهلت كل معانيك. وحقيقة الأمر أنني كنت هائماً بشيء آخر، أثرت غروري كثيراً وأنت تخاطبينني وكأنك تناجين بطلاً من أبطال الأساطير القديمة. يخجلني الآن أن أعترف بأنني لم أكترث كثيراً ببقية التفاصيل، فمثل هذه الشعارات الوطنية قد بهتت في وجداننا، لم تعد تطعم خبزاً فكيف بكل أطايب الحياة. الأمر الأكثر سوءاً صرت أعتبر المشاعر الوطنية مهاترات، حمى عارضة وستزول بعد ممارسة الحياة بكل نعيمها وهدوئها وسلامها، في اللحظة التي أنهيت فيها كلامك، نظرت نحوي تريدين

الرد، كنت أستجمع تفكيري وهمتي لأجد لنفسي العذر والحق بأن أفكر جدياً في كيفية الاستحواز عليك.

لا أعتقد أنه قد خفي عليك مدى انبهاري بك، شغلت بك عمن حولك أو معك. ماذا كان بوسعي أن أفعل وقد تبلدت المشاعر منذ زحف الترف علينا وتصعدت الرغبات الحسية التي تتذوق الرقة والجمال، وتسبح لخالقه؟

أعرف أنك أحسست بعدم اهتمامي، فما كان ليخفى عليك شيء مثل هذا، استدرت كاظمة غضبك. استفقت مما ألمّ بي.. ونظرت بشيء من التروي، رأيت حولنا رجالاُ ونساء وأطفالاً، كانوا جميعاً وقوفاً في حالة ترقب. نظرت إليهم بتعاطف وود، فقد كانت هيئتهم تدل على أنهم سائرون على أقدامهم طويلاً في العراء، وجوههم معفرة، وملابسهم رثة ممزقة ومتسخة، نعالهم مقطعة بلا لون، والذي أجفل قلبي حقاً منظر الأطفال الصغار، عيونهم متهدلة، وشفاههم متشققة، وأمهاتهم بلا حيلة وعلى وشك النحيب.

سألتك بهدوء :

– ماذا أستطيع أن أقدم لكم؟

أجبتني ببسالة وجرأة:

– ألا تطرح السلام أيها الفارس؟ نحن ضيوف. نريد مأوى وعمل إلى حين.

سألت مستوضحاً:

– من أنتم؟ ومن أين أتيتم؟

لن أنسى ما حييت أسارير وجهك وقد كساها استغراب حقيقي، ولن أنسى ما قلته بأسى:

– قد نستطيع عذركم أنكم لم تأتوا لنجدتنا ونحن نقتل ونذبح مثل النعاج، نستجير بكم وبغيركم عن بعد ولا مجيب، ولكن أن لا تعرفوا من نحن فهذه مصيبة حقيقية. هذا يعني أنكم لم تسمعوا كل تلك السنوات بما جرى وما يجري في ديارنا مع أنه أمر بالغ الخطورة، ليس علينا فقط بل على الجميع.

قرأت حيرتي على وجهي، كنت أريد مشاورة الجميع، فقلت على عجل:

– نستطيع العيش في الخيام في الوقت الحاضر حتى تتضح الأمور، نريد الفرصة للبقاء بجانب أراضينا، ونحن على أتم الاستعداد للمغادرة حين تطلبون منا ذلك.

وبالمناسبة.. هل تعرفون أن الذي اغتصب ديارنا وقتل النساء والأطفال والشيوخ، شرذمة قليلون، لكنهم قادرون، ذو بأس وجبروت. جاءونا مشردين أذلة يطلبون الأمان والمأوى، تماماً مثلما نحن الآن أمامكم، لم نتردد كما تفعلون الآن أمامنا، لم نفكر بأبعاد الغد القادم، أخذتنا النخوة والحمية التي باسمها نطالبكم الآن بإيوائنا. الحقيقة أنني أقول ما أقول ولا أعرف كيف ستثقون بنا في هذه الأيام التي أصبح الغدر أهم سمة من سماتها.

قال أحد رجالنا:

- لقد فعلنا فعلتكم وآوينا أمثال من آويتم، رضوا بالعيش على هامش حياتنا، يقومون إلى خدمتنا، لا يأنفون من أي عمل، ولا يستخفون بشيء، يتقنون في إرضائنا بكل ما يقومون به. لم يصبنا أذى من جانبهم على مدى السنوات الطويلة التي قضوها بيننا، لم ينقلبوا علينا بل رحلوا بصمت كما جاءوا إلى حيث لا ندري. الحقيقة أننا افتقدناهم كثيراً بعد رحيلهم.

قلت ضاحكة:

- نعم لقد رحلوا عنكم لكن إلى ديارنا بعد أن استتب الأمر هناك. كان طريقهم طويلاً، يسيرون وفق مخطط مرعب ينفذونه بإحكام حتى يبلغوه. إنها المافيا المتطورة، تسطو على البلاد والعباد. منافعهم مشتركة ووسائلهم حرة، يبارك كل طرف طموحات الآخرين. ليتقاسموا الغنيمة. قلة مرتزقة حثالة لا تتورع عن فعل كل شيء مقابل أيّ شيء، يعملون لحساب من في سبيلهم لتسيّد العالم، فكانوا عينهم التي ترى ويدهم التي تبطش

أراضيكم واسعة وخيرة ولكنها بحاجة للجهد والعمل والخبرة.. فلماذا لا نكون نحن بدل الغرباء الذين ذهبوا؟

أتقلب على فراشي مغيراً وضع رقادي، أضع راحة يدي فوق قلبي، أشعر بألم شديد في صدري، كأن سكيناً حادة غاصت بين ضلوعي بلا رحمة، لم أستطع كتم آهاتي، فانطلقت خارج غرفتي الموصدة دوني،

انفتح الباب ببطء وأطل رأس الطبيب وابتسامته توسع الطريق لخطواته المترددة، أمسك بيدي، جس نبضي، قائلاً:

– لا ترهق نفسك، كل شيء ينتظر إلا العافية.

– لكنها رسالة مهمة جداً، أهم من عافيتي وأهم من حياتي، اعتبرني أعترف لملك الموت قبل أن يقبضني.

– يسعدني شخصياً أن أستمع لك كثيراً وطويلاً، لكنك لا ترغب في الكلام، تريد الكتابة، وهذا جهد، والتفكير بما ستكتب جهد، والمشاعر التي تتقلب في وجدانك جهد..

– المهم ألا يكون هذا الجهد ضائعاً، أريدها أن تقرأ هذه الرسالة لتعرف كم أثّرت في حياتي وأيقظت في الإنسان والبطل في آن واحد.

– سأبقى قريباً منك فلا تقلق، عد لما كنت فيه.

أمسكت بالقلم ثانية وعلى شفتي ابتسامة هازئة أتحدى بها الدنيا، نحن الأقوى والأقدر على كل مباغتاتها، ألم تزرعي بنفسك في قلبي هذا التحدي لها؟

يا سيدتي الجميلة، يا محدثتي اللبقة. تخيلتك وأنت مندفعة في الكلام، تحلمين بصرخة المرأة المظلومة "وا معتصماه" فأهبّ لنجدتك كما هبّ المعتصم لنجدتها وجيّش الجيوش. أنّى لك هذا، نحن في زمن أغبر، قتل الخصوبة، ترك نفوسنا عقيمة وعقولنا بوراً. حين أنهيت كلامك، كنت قد سمعت ووعيت طلبك، ومع ذلك كل ما طغى على تفكيري شعور عارم بالرغبة في أن أتقدم خطوة واحدة نحوك وألامسك،

قفز قلبي في صدري مثل أرنب خائف، زجرت نفسي، كيف لي وأنا الكبير أن أمارس حماقة كهذه، فأندفع وراء مشاعري وألمس هذا الوجه وهذا الجيد وهذه الخصلات المتهدلة من الشعر هاربة من تحت الخمار الأسود الذي يزيدك فتنة؟

حين أدرت ظهرك لي ومشيت نحو جماعتك، كانت كل جوارحي خاضعة لإرادتي الجهنمية التي فرضتها على مشاعري. ولكن تفجر بي إحساس غريب بالعجز حين رأيت خطواتك الشابة الرشيقة، نعيت نفسي، نعم صدقيني كان في داخلي صوت ينتحب، وأحسست بفوات سنوات العمر. هل تفهمينني؟ نعم هو ذاك، ما زلت أفكر بنفسي وبك، واعقد المقارنات بين الشيبة والشباب، لم أحس بشعور وطني، ولا بأدنى شعور بمروءة لأرد صرخة ملهوف.

تحركت بدوري هنا وهناك فرحاً بنفسي، الحمد لله لم أمت بعد، عشت لأراك، لم أدفن أثناء العاصفة تحت كثبان الرمال في الصحراء، حيث كنت أمارس هواية الصيد، بل أنا واقف مسمر أمامك أتلهف على نظرات عينيك التي تجعلني أحس بوجودك وواقع وجودك ومعنى وجودك، وكل هذا يسري في دمي فيتدفق فيّ شيء حار فأحس بفوران الشباب فيزداد فرحي.

أقولها صريحة أنني كنت ألحظ في العينين رعباً وصرخة استنجاد لكني تشاغلت بفتنتهما. إنه العمر سيدتي، لماذا لا تصدقين؟ في مثل هذا العمر لم يعد من مطلب سوى الاستمرار في الحياة، يتغير الكثير

من المعاني، البطولة بشكل خاص. مثلك تحلم بتغير العالم كله، وليس نفسها، وليس من حولها فقط، بينما أنا أنهيت للتو مفاوضاتي مع نفسي على قبول الواقع بما فيه وما تاه مني وتهت عنه، ومسحت بقايا دموع الخيبة على أحلامي الكثيرة المنهزمة.

لقد أعددت نفسي قبل وجودك الكبير في حياتي للتحرك ضمن المنطقة الرمادية من العمر، أعرف وأتجاهل أن الشر مختلط بالخير، وصلت إلى مفهوم مريح، أن العالم ليس أكثر من مجموعة قاذورات، يخالطها شيء قليل من القيم والصفاء، نتعامل بها بقدر مثل وصفات الدواء عند اللزوم، مزيج بداخل الإنسان لا يمكنه الفكاك منه.

حللتم ضيوفاً علينا، الحق أقول إنكم من الفئة النخبة في عالمنا المحيط وكذلك فيما حولنا وبعيداً عنا، يبدو أن المصائب تجلب معها قوة العزيمة للوقوف بوجهها فتتحلى النفوس بالفضائل. نحن بلا مصائب، رضينا من الحياة ما أعطتنا وهو كثير، فلماذا نبطر؟ مرت شهور وسنون، ولم يبد ضوء لقضيتكم في نهاية النفق، بل ازدادت تعقيداً، وازداد المحتلون لأراضيكم عنتاً وتجبراً. أخذوا بالتمدد والتوسع عاماً بعد عام. تحرشوا بنا صددناهم، أصبحنا هدفهم القادم، لم نع ولم نتغير.

كنتم عوناً ونموذجاً احتذى الجميع حذوه، تفجر فينا وفي مقدراتنا الخير والبركة. ازدادت البلاد اتساعاً وعمراناً وموارد، الجميع يداً واحدة في عمل دؤوب بعد طول هجوع، بدا الفرق واضحاً بين حالنا قبلكم وحالنا بعد وجودكم. كنا مدافن لمخلفات استعمالات وإفراز المتمدنين

المتحكمين في رقاب البشر رغم البعد، وأيدينا أقل قدرة على دفع الأذى حتى لو كان بيننا بضعة أمتار، كأننا أشجار لبلاب تتساند بوضوح لا يخفى، نردد حكمة ابتدعناها كلما سمعنا ضجيج الحياة بالقرب منا، نردد دون حرج، ما معنى هذا وقد أصبح كل شيء بلا معنى؟ إلى هذا الحد لم يعد أي شيء يثير اهتمامنا أو يحرك نوازعنا قدر المتعة بكافة أشكالها.

بعد اشتعال نفوسنا بتلك الهمة الفريدة، أدركنا أننا اختزنا طوال السنوات الماضية مواجعنا، باتت بانتظار من يحفزها للحياة من جديد بكل تعبها وعنتها وحتى جبروتها. أصبح واضحاً أن الجميع يحاولون بجهود خارقة استعادة وجودهم كأحياء فعّالة مثمرة. الحق أننا ومنذ زمن طويل، لم يعد الوجود يعني لنا التعب والجهد والإرهاق، سواء كان مادياً أو معنوياً، بل شيئاً سهلاً وميسوراً.

ما أجمل أن تتحول كراهية الامتياز التي فطر عليها البشر، والتي تزداد شراسة مع الثراء وخاصة بيننا، إلى منافسة وتسابق في التعلم والمعرفة والعمل. زادت الطاقات والموارد، عملوا بالزراعية، استجدت أعمال الصناعة والتجارة، فتحتم لنا أبواباً عدة لاختراق العزلة. يبدو أن ذلك لم يرق لمن يراقب أمور حياتنا ويغرقنا بكثير من ملاهي الحياة، تنبهوا لدبيب الحياة فينا، فزعوا لا لشيء سوى أن شيئاً مثل هذا يردنا إلى عالم الناس الأحياء من جديد.

أيتها النمرة المتحفزة التي لم تأخذ حقها من الحماية بقدر ما أعطت ومنحت، أعترف لك أينما كنت، بأنك من أعطى أهل البلاد الحياة بكل معانيها، حتى صلاتهم بعضهم ببعض نمت وقويت، فرقنا شيء تافه، شعور كل منا بالتفرد والتفوق، بصبرك الجميل وقدراتك الفائقة عن العادة، أيقظتنا من طفولة استغرقتنا زمناً طويلاً، فعشنا جثثاً محنطة ولم نكبر ولم يزدد وعينا.

ازداد الخير.. ازداد الحب..أما عن نفسي فحتى ذلك الحين على الرغم من التغيير مازلت أنا السيد البطل القديم سادراً في الغيّ، لا أحلم إلا بهذا الجمال الأخاذ، هذا الجمال الإنساني الذي كان يشعرني حين أتأمله أنني بغاية الانسجام مع نفسي ومع من حولي ومع الطبيعة بأسرها.

فجأة بدأت الأمور تضطرب، ضرب الناس كفاً بكف بعد حصاد شحيح، بدأ اللغط قال قائل مواسياً:

– إنه عام جفاف ضرب موسم الزراعة، فاصبروا عسى أن يكون العام القادم خيراً منه.

قلت بثقة:

– هذا ليس صحيحاً، العلة في البذور نفسها، كانت فاسدة فأفسدت الأرض لأعوام كثيرة قادمة.

تعطلت مصانعنا الصغيرة، فقدنا قطع الغيار التي كانت متوفرة في أيدينا بكثرة، اعتقدنا أن ذلك ليس أكثر من تهاون في طلبها وسوء حظ.

أكدت قائلة :

– اطلبوها..لن تأتي، إنها اليد الطويلة.

قيل عنك إنك تعانين من شعور مفرط بالاضطهاد. لذلك لم يأخذوا العبرة مما كنت تقولين. عادوا للتنازع على كل شيء وعلى لا شيء. نعم كل شيء تعرض لمشكلة أو لعدة مشاكل، فأحبط اندفاعنا الذي نعيشه. حتى سمعتك تتحدثين إلى الناس بصوتك الهادئ المريح:

– من الضروري التوقف قليلاً لنعرف علّة ما حصل، الجميع اعتقد أن ذلك مجرد أزمة وستنتهي، ولكني على ثقة بأن الأمر أخطر من ذلك بكثير.

لم تري تجاوباً. تغيرت أحوالك وأنت ترين كل جهد تبذلينه يتلاشى قبل أن يعطي ثماره، يدب الحماس ثم ينطفئ، ولم تجدي أذناً صاغية لكلامك، أيقنت بأنك لن تجدي قلباً واسعاً يحتويك، همومك عادت أشد ضراوة من ذي قبل، كنت أعرف إحساسك، كان أملك ينبع من أعماق هذه الأرض، العزم لاسترداد الحق الضائع، فلما رأيتها تهتز تحت الأقدام دب اليأس في قلبك وعقلك الذي لا ينام ولا يهدأ.

صرت أرى البلاء يعم البلاد بشكل متتال، لم ينصلح حالي، أرى الجميع يسألون ويتحرون، ثم فجأة يملون، ولا يتوصلون إلى شيء جديد.

عادت للنفوس اللامبالاة القديمة تحت اسم جديد، الصبر والانتظار أن تزول الغمة كما أتت.

لم أشعر بالذنب إلا بعد فوات الأوان، فهمت ولاحظت سذاجة أفكارهم وبساطة نواياهم، وجهك يا فاتنتي وحده كان المرآة الحقيقية للموقف، مكسواً دوماً بالجمود والغضب، أشهرت غضبك في وجه الجميع بصمت، عيناك وحدهما لم تغلق لغتهما بوجوههم. من جديد عدت تشعرينني بنظرات كالسياط أنني وحدي المسئول عما جرى لك وما سيجري لسكان هذه الديار، وحدي المعني بمجيئك، وحدي من عليه أن يأخذ بزمام الأمور.

بقيت على تجاهلي، فهمت، إنك تريدين الفارس الشجاع الذي سمعت عنه في الحكايات، تريدين السيد المطاع في قومه، تريدين أن تبرز في الساحة من جديد قضيتك، تفهمينا أنها قضيتنا أيضاً. لم تجدي وسيلة سوى أن تردي على هذا التجاهل المقصود بالسخرية مشهرة في وجهي تحديك. هل تذكرين؟

اقتربت مني حال وصولي إلى الواحة بعد رحلة صيد، بينما كان خادمي يستعد لمساعدتي على النزول عن صهوة جوادي قلت متهكمة:

– أرى أيها الفارس أن خيولكم الأصيلة أصبحت للتباهي والتريض، وأسلحتكم للزينة وللصيد.

فابتسمت بلا جواب لأفوت عليك الفرصة، ماذا أقول؟ أنت لا تدركين، لأنك لم تجربي الحياة بعد، فهي عندما تمنح الإنسان كل شيء تفسد فيه كل شيء.

أجبت على ما ورد بفكري وكأنك قرأته:

– لم أكن أعرف أن من الممكن أن يتحول الإنسان إلى جماد، يتحرك كالدمى، لا ترى، لا تسمع، لا تحس، والأمرّ من ذلك كله أنكم لا تنفعلون بتحري الأسرار التي تحملها كل ذرة هواء. على الأقل من باب الفضول.

أثارتك نظرتي الباهتة فقلت بسخرية أشد:

– ظننت في بداية الأمر أن وراء هذا الهدوء الثابت ثقة مطلقة بالنفس وقدرات لا محدودة، الحقيقة لقد خدعت، فما أنتم إلا بنيان هش متداع منذ زمن طويل، من أجل ذلك تجرأ علينا الرعاع.

لم يصل إلى عقلي أي انفعال كما تريدين، بل رأيت وجهك الآخر، لم أكن قد رأيته من قبل. لا تتسرعي وتظني بأنه شفاني من ولهي بل ازددت حباً، فوجودك أسعد قلبي الكهل، لم يعد يمتلك القدرة على انتزاعك وتناسي أيامه الحلوة المبهجة.

أتساءل الآن وقلبي المسكين يتوجع، كيف خطر لي أنك ما جئت إلا لتزيدي من رخاء ونعيم أيام حياتي؟ كيف عشت منتظراً بفارغ الصبر الأمل في أن يتبدل هذا الشموخ إلى لين بعد أن تنعمي بالحياة؟ كيف ظننت أنك ستقبلينني أنا وتنسين ما جئت من أجله؟.

لا لم أكن متواطئاً مع أحد ما ضدك، مع أن كل ما فعلته من تهاون يؤيد ذلك، كنت في دخيلة نفسي أنتظر منك أن تنسي وتعيشي، وهل يعني شيء مثل هذا غير أنني أحقق الغاية التي يسعى إليها أولئك الذين فررت منهم ولجأت إليّ، كأنني كنت أنفذ مخططهم، بتغيير رؤياك، بإبعادك عن هدفك الذي تعيشين من أجله؟ كنت أقوم بكل تلك الشرور دون أن أدري.

يا للمأساة التي عشتها بيننا بعد أن خاب ظنك وضاع أملك. عرفت مؤخراً أنك لا تبحثين عمن يغمرك بالنعيم لتنسي ما يؤرقك، ولا أنت ممن يبعن الابتسام لمن يريد أن ينسى ما يؤرقه. لا لست بحاجة لرجل يراك وردة دائمة العطر، بل لمن يحلق وراء كبريائك وتألق وجودك حتى يصبح هاجسه.

قلت لك معاتباً:

– لم أعرف أنك تقدرين على أن تكوني بمثل هذه القسوة، أنت أيضاً خدعني مظهرك. ماذا تخفين خلف هذه القسوة؟ أليس من الجائز أن تكون قناعاً يخفي الوهن وخوار العزيمة؟

– لم يعرف قلبي الوهن والخوار إلا عندما تعب من محاولة إدخال فكرة الخطر الداهم القادم نحوكم. لا أعرف كيف فوجئتم بكلماتي كأنها شيء جديد على أسماعكم، كلما أوجعتكم أكثر كرهتموها أكثر وأكثر. إن ما شجعني على الاستمرار على الرغم مما أبديتموه من إعراض

واستهجان، إحساسي بأن كلماتي تحفر مكاناً لها في صدوركم المملوءة بمتع الأيام السهلة.

كل شيء هنا يذكرني بك. كل عود أخضر، كل هدير آلة، كل ثقة على أي وجه، من ألوم؟ لن ألوم سوى نفسي، استعذب العذاب بإعادة كلماتك، وبصراحة استغرب من نفسي كيف أعيها، كيف هي محفورة بالوجدان. كم أصررت على التجاهل وبأنني لا أفقه شيئاً مما تريدين إيصاله لي بقولك :

– تنبه أيها الفارس، لقد أصبحت شيخاً، خطوات جوادك باتت أثقل وصيدك أقل كماً وجودة، ترى هل تركت شيئاً من القوة في جناحيك إذا جار الزمان ودعتك الحاجة للطيران والتحليق من جديد؟

أجبتك مراوغاً بابتسامة رقيقة:

– أتعنين أنني في وداع؟ الخضرة تزهو بعد اليباس، ودفء الشمس يغمرنا بعد الصقيع. رغم أشباح العمر التي ترينها ستبقى لي عزيمتي للانطلاق بها نحو المروج. الدنيا كريمة ونحن نستحق.

عبست يائسة، ظننتني لم أفهم مرادك، أو على الأقل تمنيت أن أجيبك بشكل يوحي أنني فهمت ولكني لا املك جواباً، تركتني مبتعدة مترددة ثم عدت إليّ لتهمسي من خلال ضحكة فاترة:

– لا تعول كثيراً على الدنيا، إنها أعجز من أن تتحمل عجزنا، فهي لا تهب نفسها إلا لمن يجابهها بكامل قواه، وتكون أحلامه في الميزان تتعادل مع قدراته، وقلبه فتي ينبض بقوة الرغبة في الحياة. تخيل

ردود فعلها إذا سمعت أنيننا من وطأة السنين، ألا تتوارى وتخذلنا، وتمنح نفسها للأقوى؟

لامست يدي بحنان وسألتني بمرارة:

– كم مرة فعلتها معك أيها الشيخ؟

كانت المرة الأولى التي تناديني أيها الشيخ، ذاك اليوم فقط. شغل بالي وتلبستني حيرتي، ما معنى هذا؟ هل تذكّرينني بأنني لا أصلح لك؟ هل توحين إليّ بأن شعورك تجاهي فاتر؟ إذن ماذا أقول لإحساسي الباهر الغامر تجاهك؟

ما زلت أحس حرارة يديك وكلماتك، حتى هذه اللحظة لم تفقد توهجها، وكلما ذكرتها استعيد شعوري بها كاملاً وكأنه حصل منذ لحظات، ومع ذلك فقد أجبتك لحظتها بصفاقة ليست من طبعي:

– فلتكن كما يحلو لها، لا أريد منها سواك.

يا رب.. ساعدني لأنسى هذا الانهيار الذي أصابك، والتوتر القاسي الذي بدا على الوجه الفاتن وأنت تتركينني متجهمة، ودموعك الصعبة النزول جامدة في مآقيها، يا رب.. كيف لي أن أنسى كم أثلج صدري غضبك؟ وكيف قلت لنفسي شامتاً "لن تتجاهلي بعد اليوم حديث القلوب، سيتغير شيء ما". هكذا فهمت نظرتك الطويلة الحزينة التي كانت تهدد بالقطيعة، بينما تجارب سنوات عمري تقول: "لا إنها تعد بوصال"

كانت قطيعة طويلة أشعرتني بالمرض، اعتقدت أن ذلك الوهن من خريف العمر المنحدر بي بسرعة كالهاوية نحو شتاء غائم. لم أشأ الاعتراف ولا حتى بيني وبين نفسي أنه همّ رجل له محبوبة متصلبة لا ترحم رعشة الزمن المتمشية في كيانه، تريدني فارسها، تريدني صلاح الدين الجديد.

دعيني أشرح لك ما غمض عليك، وما لم أقله لك مواجهة خوف الفراق. لقد خدعك عددنا. قلت إننا كثر كأمواج البحر. لم أشأ أن أرد عليك، بل نحن برك راكدة. وحين قلت إن رؤوسنا شامخة تتطاول حتى عنان السماء، لم أشأ أن أشعرك بنفوسنا المسحوقة وهي تحاول أن تستجيب لك فلا تقوى.

أعياني انتظارك معبودتي، لاشك أنه قد بلغك خبر مرضي ورقادي فلم تسألي عني، ولم أرسل أحداً ليطمئن عليك كل تلك الفترة، خشيت أن يعرف أحد بما تم بيننا. تحاملت على نفسي وذهبت لأراك، لم يكن في نيتي أن أمنح وعداً أو أقبل بتضحية، لأنني وببساطة شديدة وبصفتي الكبير هنا أعرف أنه ليس بإمكاننا تنفيذ شيء مما تريدين.

رأيتك واقفة تتطلعين برعب حقيقي نحو البعيد، التفت صوبي وما إن رأيتني حتى هرعت نحوي. تسمرت في مكاني وقد استخفني الفرح، نعم فرح بينما كنت تتمزقين، لقد فهمت معنى اندفاعك نحوي خطأ بأنه الشوق والانتظار، وجدتني أنقل خطواتي نحوك برشاقة أذهلتني، وبخفة لا تليق بمثلي، ألقيت بنفسي لك، شددت على يديك بكل قواي. انزاح

العتم والخوف وارتسمت على عيني وشفتي ابتسامة نصر حرة، شعرت بنفسي نسراً طليقاً محلقاً في السماء، وندمت على الأيام التي قضيتها بعيداً عنك حبيساً وحرمت نفسي من الضياء كالخفافيش.

بقدر ما دهشت من نفسي دهشت أكثر من استمرار الكدر على وجهك، بل ولأول مرة أسمعك تجهشين في بكاء مرير، وترددين جملة واحدة لا غير" لقد فات الأوان، لقد تأخرت كثيراً" استعصى على عقلي الفهم تماماً، ولكني تساءلت جزعاً: " كيف انتقل العجز إلى القلب الشاب وقفز الأمل إلى قلب الشيخ المودع لست أدري؟"

قبل أن استوضح ما انغلق عليّ فهمه، أطلت علي تلك الوجوه الغريبة من كل الجهات، صلبة كأنما قدت من جماد، ثابتة محدقة بوقاحة مريبة، انفعلت.. صرخت.. ولكن من أنادي؟ رجالي خلفهم يحيطون بهم كأنهم بعض منهم، وجوههم تشبه الوجوه المعادية الواقفة أمامنا بتحد لا يوصف، وقف بجانبي عدد قليل، قبل أن يتحرك أحد منا كانوا قد أطبقوا علينا من الأمام ومن الخلف، اقتربت منك وهمي الوحيد حمايتك ولكنك انتفضت مبتعدة هامسة:

– هل رأيت نتيجة التلهي والأقوال الفارغة والأعمال الساذجة؟ لقد نبهتكم مراراً بأنكم تتسلون أمام المصائب والجميع يجد.

تقدم أحدهم وشدك من يدك، سمعت نفسي أقول بحماسة عجيبة:

– لن تأخذوها إلا على جثتي.

قال وصدى ضحكه يتجاوب في الفضاء:

– لا أصدق ما أسمع، لماذا صمتك كل تلك السنوات؟ لقد فهمنا أنك تلعب معنا وليس ضدنا، دعها لنا فهذا أسلم لكم، هل تفهمني؟ أسلم لكم.

– يا أهلي، هيا لنجدة ابنتكم التي عاشت بينكم وأعطتكم الكثير. علمتنا أن الحياة لا تساوي شيئاً إذا لم تكن مملوءة بالحب الجميل، لا تدعوهم يسلبوها حريتها بعد أن أخذوا منها الكثير، لم يتركوا لها في السابق إلا شعوراً واحداً هو الشعور بالظلم بعد إحكام المؤامرة حولها، ومع ذلك صنعت من ذلك الشعور نهراً تدفق وروى نفوسكم وأراضيكم. لقد جاءوا اليوم لحملها فدية إلى سماسرة الخراب، وبعدها سنصبح في مهب العاصفة القادمة. ماذا أنتم فاعلون؟

– دعها تذهب، دعها لهم، إنها لعنة، ستجلب علينا الخراب.

انسحبت العيون المتلصصة من كل النوافذ والأبواب، وبدأ الجميع ينفض من حولنا، والآخر متشبث بذراعك يشدها كأنه يوشك على أن يقتلع مني حياتي، قلت بوجع العجز:

– اتركوها للحظات معي وبعدها سنتباحث بشأنها.

– تذكر أن نصرتها معناها أن تنتقل لكم عدوى التشرد والضياع، متاع الحياة حولكم بكل زخرفها ونعيمها، لا تحسبوه خيراً لكم بل ألغاماً موقوتة، حالة العيش الرغد والاكتفاء الذي جعلناكم تعيشون فيه ليس أكثر من سور يحجزكم عن الدخول إلى جدية الصراع أو التفكير بأسرار لا تخصكم، ابقوا على الحياد، مقابل السلام والطمأنينة، تذكر أننا بدورنا

بحاجة لمثل هذا السلام وهذه الطمأنينة، يعني تحقيق شيء مثل ذلك يستحق ولو أفنينا البشرية.

– لو كان لي من العمر مائة عام أخرى لوهبتها لها عن طيب خاطر، لن يتخلى أهلنا عني وعنها، لكن قبل كل ذلك أريد أن أختلي بها للحظة وأتشاور معها ثم معكم.

ضحك أحدهم بفجاجة وهو يقول:

– لماذا لم تفكر بالتشاور معها طوال فترة وجودها بينكم؟ ما أنت إلا رجل مفتون بها، لقد باركنا سعيك لنيل قلبها، على أمل أن تريحها من كل عذاب أو حرمان ومن ثم تريحنا، لكنك فشلت بينما نجحت هي، لقد سحبتكم إلى طريقها، جندتكم لتصبحوا مثلها، وهذا خطر كبير علينا لن نسمح به. إذا استطعت إغواءها وأرحتنا تكون بذلك قد أرحت نفسك وأهلك. على كل حال لك هذه الفرصة الأخيرة.

بلمح البصر فتح الطريق أمامنا، انتبهت إلى أن أكثر رجالهم محسوبون علينا كأنهم منا، إذن لهم أعين عندنا كما لهم بكل زمان ومكان، لقد فرطتم في وديعتكم يا أهلنا بلا ثمن.

أمسكت بيدي تشدين عليها وتهمسين:

– أدركت منذ البداية أنك لن تخذلني.. أنت فارس حقيقي.. أنت رجل في زمن فيه تغير معنى الرجولة ومعنى الإنسان. أدرك قلبي ومنذ البداية أنك الإنسان، وتعمق شعوري بأنك منقذنا جميعاً، هي كلمة.. قلها وليأت الفناء بعدها.

فررت بك إلى عرين الأسد، حملت بلسماً شافياً لشيخوختي كما اعتقدت، حلمت بعودة الشباب لأنصفك، لأجدل حلم عمرك الجميل حول عمل جليل أقوم به كما تتمنين عليّ. منحتني فرصة العمر بأن أعود إلى سابق مجدي، لم تتحقق أمنيتك إلا في ضحكة شابة أطلقتها مجلجلة فأشاعت القوة في جسدي الهامد ثم انطفأت. لم يبق أمامي سوى أن أعرض عليها الفرار، بهت، ثم بكيت من جديد وقلت:

– لكن إلى أين، لماذا لا تصدقون بأننا لسنا وحدنا الهدف؟ لم يعد لنا خيار، الموت أو الحياة. تعال وانظر من النافذة، لقد عاد الجميع إلى السمر في وداعة وتآلف، وكأن ما شاهدوه منذ لحظات مشاهد مسرحية انتهت بانتهاء العرض، عادوا إلى الحياة الباهتة التي كنت تعتقد أنني أتهمكم بممارستها، ألا ترى الآن كم هي حقيقة؟

انقلب وجودك بجانبي إلى مأتم، كنت أفكر في مخرج مؤقت وترفضين القبول إلا بحل جذري ولو تأخر قرناً من الزمن. نعم لقد انقلبت الفرحة إلى مأتم، فقد فتح الباب بقمة العنف وكنت بقمة الضعف وانتزعوك مني، وتركوا لي عاري، ها أنا ذا أغسله بدموعي وأعترف بأن تلك الحبيبة حينما استجارت بي كانت كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

عشنا وما زلنا نعيش كالمراهقين، نسهر في ضوء القمر، ونغرق في عشق جمال الطبيعة وهي تتقلب في أحضان الفصول، كل شيء لا يعني شيئاً، مازلت أنحي باللائمة على نفسي وأجلدها بالندم، كيف ظننت أن قليلاً من التعقل والتفهم يحلان المشكلة؟.

سأموت وستبقى الصورة التي رأيتك عليها آخر مرة وأنت تنتفضين مثل الذبيح، تريدين وعداً فقط ولو متأخراً قبل ذهابك فلم أستطع منحه لك، فالجميع لاهون، ينتظرون قرار إعدامك، ليشاركوا بمراسم الدفن ثم ينسوا ويرتاحوا. رأيتك أسيرة، ملكة مقيدة، حولها شعبها الأعزل، يلتقطون الحجارة من الأرض ويقذفون بها عدوك وعدوهم.

لم يشارك أحد ممن عشت بينهم وأعطيتهم الأمل في الغد. غبت عن عيوننا، ومرت الأيام وما زلت عاجزاً عن التفكير وعن التكفير وعن قبول الأمر الواقع. ليس من مكان لمثلي وأمثال من هم تحت ولايتي سوى القبر ليس غير، لقد باعك من قبض الثمن لا بل اشتركنا جميعاً في صفقة البيع بالمقايضة.

طكبئام ز

منذ فترة طويلة وهي مشغولة الفكر والوجدان بأمر زوجها، لقد تغير من النقيض إلى النقيض، مسحورة بهذا الفيض الغامر الغامض من الحنان والرقة العذبة المتناهية منه. لا تعرف أتصدقه أم تعرض عنه؟ حالة مستجدة تملأ فكرها وتجذبها بعنف لتصحو وتدخل من جديد عالماً تتفتح فيه حياتها كما تمنتها أعواماً وأعواماً.

نفسها تشف من جديد، نشوى تبوح بأدق خلجاتها. تبدأ بفتح ملفات العمر من جديد، تفتش بين سطورها وحواشيها وما بين السطور بيسر كمن عاشها مرة بألم وقرأها مرات ومرات، مرتبة بعناية يد خبيرة ماهرة تماماً كما عاشتها. صور ساكنة مستقرة في الشعور واللاشعور، صور

حزينة وهي الغالبة، يأمر وينهي فيها من ملك زمام أيامها وصادر حياتها بصفته المشتري، صور أخرى قليلة مفرحة.

تتناوب الصور في مخيلتها، تظهر وتختفي حسب تداعي الأفكار عند المواقف المتكررة أو عند الأحداث الجديدة، تبدو واضحة تارة وباهتة أخرى، كأن هذا التغيير زلزال هز حياتها فاختلط الحابل بالنابل وعليها إعادة الجدولة بأمور أغلقت ملفاتها منذ أمد بعيد.

كان يوماً مشهوداً في حياتها، لم تدبر له، ولم يأتها نتيجة تفكير متواصل ودراسة جدوى وتسلسل وقائع، بل جاء فجأة. صار لها حياتها الخاصة، من ألفها إلى يائها، لا تعرف من كان يخطط ويرتب، فالمهم أن نظام حياتها الجديد أراحها، ولم ينس عقلها المدبر دونها أن يتحفها بشيء من المداهنة، فظلت تظهر له اهتمامها بكل شؤونهما المشتركة كما كانت تماماً.

ماذا حدث له حتى تذكرها وقرر تشويش حياتها مرة أخرى؟ لماذا يعيدها إلى عنق الزجاجة فتبقى بلا موقف، فلا هي في القاع لتدمر نفسها ولا هي في الخارج لتجد لها منفذاً. تتذكر الحوار الذي جرى بينهما قبل عدة أيام، تقول حواراً وهي في غاية الدهشة لأنه شيء جديد عليهما، فما كان يدور بينهما أوامر تصدر منه بفوقية عجيبة، أريدك أن.. افعلي كذا.. لا تفعلي كذا.. كان يكرر أنا في الجملة مرات ومرات قبل النطق بالطلب.

لن تتوه خلف المقارنات بين ما كان وما تعيشه الآن فعلاً، المهم أن تتابع ما جدّ بعد ذاك الحوار الأول والمستجد، لم يبق يتيماً، لقد جرّ إلى أحاديث وجلسات وعتاب واعتذارات وكل هذه الكلمات التي كانت محذوفة من قاموسه. لكن لماذا الآن؟

كانا يصرفان وقت ما بعد العشاء كعادتهما بالطريقة المتفق عليها ضمناً لأنها تريحه، بعد انتهائها من خدمته تجلس قبالة التلفزيون تتابع أفلاماً قديمة تحبها كثيراً بشكل دائم. بينما يجلس بعيداً عنها يقرأ الجرائد والمجلات ريثما يحين موعد نشرات الأخبار، فيأخذ مكانه ويتابعها بصمت دون انفعال يذكر، يتحول من قناة إلى أخرى ويتكرر الخبر وتتكرر المشاهد وتستغرب كيف يطيق سماع الخبر أكثر من مرة مهما عظم. طبعاً هذا الاعتراض لم يعد يتكرر فقد حسمه ليس بكلمة بل بمجرد نظرة طويلة فيها اتهام صريح بالجهل أو بشيء من هذا القبيل.

ذلك اليوم فاجأها بخروجه عن المألوف وتحدث. في البداية، حين سمعت صوته قفزت من مكانها استعداداً لتلبية طلباته وما أكثرها، وهذه أيضاً رسخت قانوناً بكلمات بسيطة ألغى كل اعتراض منها، ردد كثيراً "لماذا إذن تزوجت" أثارت الكثير من المشاكل وبجدية سنين عديدة حول هذه الجملة وما بها من تسفيه وتحقير لفكرة الزواج أصلاً، لكنها باءت بالفشل، فهو متعب دائماً، في الصباح يصرخ" قولي يا فتاح يا عليم" وفي الظهيرة "ارحميني فأنا منهك من العمل منذ الصباح دون توقف" وفي المساء " ألم ننته بعد من هذا الدرس؟أف.. غيريه أرجوك."

في الحقيقة أن التغيير المذهل الحاصل الآن والذي أوقد نار حيرتها لم يقتصر على الكلام فقط، بل تعداه إلى الملاطفة العاطفية، فحين رآها تنهض بسرعة، أمسك بيدها برقة وأجلسها بجانبه وهو يعيد الافتتاحية التي بدأ بها ففاجأتها، كان يطرح فكرة في طياتها نغمة تشبه اعتراضاتها السابقة، لم تعلق بسرعة، السؤال الذي يحوم فوق لسانه هو ذاته الذي ألغته من رأسها واتجهت إلى سياسة القرود، لا أرى..لا أسمع..لا أتكلم.

قال:

– منذ مدة طويلة وأنا أعيد تقيم حياتنا، فأجدنا قد انتهجنا منهجاً أساسه الهدوء لنوفر لأنفسنا الراحة المنشودة، لكنني فجأة صرت أكره هذا الهدوء، صار له اسم آخر، شيء يشبه الموت، يشبه وحشة القبور. أذكر جيداً أنك لم تكوني راضية تماماً عن ذاك النظام، كنت تقولين إنها حياة مريحة لكنها رتيبة مملة وخالية من السعادة، كنت عندها أغلق باب الحديث معك ربما بطريقة قاسية، تفادياً للاخد والرد.

الآن وأنا أفكر جدياً بهذا الأمر خطر لي خاطر ملح بأن أسألك، هل كنت مجرد معترضة على حياة لم تتدخلي في التخطيط لها أم كان عندك البديل؟ أعني هل كان لديك مخطط آخر للسعادة؟

– لكن لماذا تسأل الآن ؟

قال بجدية:

– أفكر بك كثيراً هذه الأيام، وأتذكر أحلامك وأمنياتك التي جعلتك تتخلين عنها في سبيل اللحاق بي حيثما توجهت.

قالت بصدق:

– لا لم أكن أملك خطة جاهزة للسعادة، ولا أظن أن أحداً يملكها مهما بلغ من الذكاء والعبقرية، لكن بالفطرة لم أصدق أن الحياة هكذا، أردتك أن تتمهل في مطاردة أيامك، وبدلاً من أن تتساءل متى؟ تتساءل كيف ولماذا.

قال متضاحكاً:

– هل هناك فرق بين التساؤلين لدرجة أن يكون مسار كل منهما عكس الآخر؟

قالت دون إصرار:

– لا ليس هذا بالتأكيد، ولكن كنت أرى أن من الحكمة الاستماع إلى وجهة نظر أخرى، وكما يقولون" رأيان خير من رأي واحد". تمنيت عليك مثلاً أن تستمع رأيي في طريقة سعيك في مناكب الحياة، أرى أن الإنسان قبل النضوج يتساءل بإلحاح متى؟ وإلى أين؟ لكنه بعد الخبرة والنجاح أولى به أن يتساءل لماذا أفعل كذا؟ وكيف؟

– من الآن سيكون لنا رأيان، بل ولك مطلق الصلاحية أن تنفذي ما شئت دون الرجوع إليّ، فأنا واثق من سداد رأيك وحكمتك.

في البداية ظنتها فورة وستهدأ، ويعود كل شيء إلى سابق عهده، ولما طال الأمر ظنته متعباً أو مريضاً، ولكن الأمر استمر ثم استتب وأصبح نظام حياة بينهما، كأن هذا الرجل قد تخلى عن سيادته المطلقة في عرين الأسد، بات لين العريكة، على استعداد تام لأي تنازل دون

تفاوض. لم تفهم، فإن لكل شيء سبباً. لابد وأن يكون به شيء غير عادي، كل محاولاتها لتجديد حياتهما وكسر روتينها ذهبت أدراج الرياح، فكان أن أقنعت نفسها بقبول العيش تحت ظل هذا النظام العسكري الصارم.

عاشا تحت سقف واحد كل هذا العمر الطويل ولكل منهما عالمه الخاص، وبين العالمين مسافات شاسعة من الاختلاف أدت إلى ما يشبه العداوة بينهما. فهل أدرك اتساع الهوة بينهما؟ وأن الحياة أخذت تجنح نحو منعطف خطر؟ ماذا يريد منها بعد أن استكانت واستسلمت بمرارة المنهزم؟ وبعد أن يئست أن يكون في بيتها موطئ لقدمها، أو صدى لصوتها، أو احترام لرأيها؟ ماذا بعد أن اعترفت بفشلها في اختراق حياة زوجها؟رغم أنها حاولت أن تتجانس حياتاهما وتصبحا حياة واحدة لشخصين. بعد العراك والفشل وقبول ما هو مفروض، أعدت نفسها لأسوأ الأيام، وسقطت كغيرها من النساء في دوامة العيش الذي لا يعني حياة بأي صورة من الصور.

هذه الأمسيات اللطيفة المستجدة تجعلها تتحسر على أمسيات كثيرة من عمرهما مضت، لم تكن أكثر من همّ يجثم على القلب. تقبلت غيابه الطويل غير المحدد عن البيت كشيء مسلم به. وافقت على العيش مع نفسها في وحشة العزلة والوحدة كأمر حتمي. الآن.. ماذا هي فاعلة والحياة بدأت تدب في أمسياتهما الميتة؟ لم يعد يتلهى في فترة ما قبل النوم بجريدته، أو بمتابعة الأخبار في التلفزيون، بينما هي تلوك غضبها.

لم يعد الحديث يجهض قبل تمامه. هو بكليته معها. ولكن ما تتمناه الآن فعلاً هو استجابتها شخصياً لهذا التغيير، كلما حاولت باستماتة يتغلب عليها شعور غريب ويتملكها، بأنها لا تعرف هذا الإنسان الذي عاشت معه كل عمرها تقريباً، لا تعرف إذا كان هذا التغيير حقيقياً وبلا هدف تجهله.

صور الماضي والحاضر تترى وهي حيرى، لماذا الآن؟ ما الذي جرى؟ أين هذا الإنسان الجالس معها والذي يطالبها بالتصريح والتلميح أن تكون امرأته، من ذلك الإنسان الذي وصفته مراراً بأنه مسكون بشيطان، تناسى معنى الزواج ولم يعطها حقها لا عدلاً ولا فضلاً.

استفاقت من شرودها وراء خيالاتها وتلفتت مذعورة خوفاً من أن يكون شيء مما تفكر به قد تسرب رغماً عنها كان يتابعها بكل حب ولهفة، سألته بارتباك:

– ماذا بك؟

قال بصدق أذهلها:

– أتساءل هل ستغفرين وتفتحين لي باب جنتك من جديد؟ أعرف أن ذلك يحتاج إلى وقت طويل، ولكن عديني ألا يطول انتظاري.

قالت مندهشة:

– أغفر.. أنا..؟

– نعم أنت..كثيراً ما قسوت وجفوت ونسيت من أجل النجاح والعمل، وكل ما جنيته لا يساوي حزن عينيك. كنت أعرف أنك ستقدرين

وتعذرين. كنت واثقاً من أنك تدركين أنني أدفن في قلبي كل الحب بأعماقي مؤجلاً ربيعه و..

لم تتمالك نفسها من إطلاق نفحة ساخرة من جوفها:

- أظننته سيتفتح في الخريف؟ لا ياعزيزي.. مثل هذه الأمور لا تنتظر، إما أن تعيش وتكبر أو تموت، العواطف الإنسانية ليست تياراً كهربائياً مفتاحه بأيدينا يسري في الأسلاك أو يتوقف حسب مشيئتنا.

أكمل حديثه دون تعليق :

- أحببتك.. وما زلت .. ولكني أفتقدك .

- أعرف ..

اقترب منها ممازحاً:

- هل تذكرين اليوم الذي أصررت فيه على الطلاق؟ ترى لو حصل وطلقنا هل، كنت ستوافقين على العودة بعد ذلك؟

- أولاً ذاك يوم لا ينسى، ففيه رميت وراء ظهري كل رغباتي وأمنياتي وإنسانيتي. ثانياً كثيراً ما وقعت بالأخطاء ذاتها، حسب ما كنت تقنعني خلال رحلة حياتنا، لكنني حتماً كنت في تلك المرة أشد حرصاً على ألا أكرر الخطأ.

تقبل منها ما قالته برحابة صدر، ليس هذا فقط، بل ابتسم، ثم ضحك وقال:

- كنت أعرف، لذلك لم أوافق هل ترين الآن من منا تمسك بالآخر؟ وأي منا كان حرصه أشدّ على الآخر؟

– وهل تعتقد أنك احتفظت بالمرأة ذاتها التي اقترنت بها ذات يوم؟

انتقل إلى جوارها وقال بحرارة:

– أتعرفين؟ لقد كنت لي دنياي الحلوة ، صبرك ومحبتك بل وجودك بجانبي، كان الحافز الوحيد لنجاحي.

لم ترد، لقد برز في فكرها السؤال الصعب ، لماذا الآن؟ ما الذي جرى؟ لقد ظنته انتهى وأصبح رجلاً ثرثاراً ومشاكساً من الدرجة الأولى، وحوله النجاح إلى إنسان مغرور وشرير، ها هو قادر على الانبعاث من جديد، قادر عل امتلاك زمام نفسه وكأنه جهاز آلي يحرك حياته بأزرار. ليس هذا فقط، فقد استعاد إنسانيته، وفسح المجال لعقله ليفكر بأشياء أخرى غير العمل والنجاح والتفوق والمال، وقد كان يعتبرها تافهة،. إنه أمامي الآن بلحمة وشحمه متحرراً من قيود الأوراق والمعاملات والعملات، أعاد المارد إلى حجمه، ها هو ذا يتلمس طريق المشاعر ويحس بوجودها بل ويطلبها.

سبقها إلى النوم، بقيت في جلستها، تريد أن تتناسى محاولاته. صحيح أن هذا الحدث لا سابقة له، ولكن من يدري؟ لا بد من سبب. لكن مهما كان، هل تستطيع أن تنسى عمرها المهدور وتعود من حيث تركها؟ ألا يتلاعب بأوجاعها ولا يريدها أن تهدأ؟

حين ذهبت إلى النوم وجدته نائماً بوداعة، شعرت بلهفة نحوه لكن سرعان ما سرى غضبها المروض على الاستكانة، فزمت شفتيها خوف أن تنطلق صرخة تندب حظها وشبابها. لا بد لهذا التغيير من تبرير

ستعرفه فلماذا الاستعجال؟ ألم تعتد على الصبر وإلا ماذا كانت تفعل كل هذه السنوات؟

ما أطولها السنوات وما أمرّها، لقد انفرط عقدها المجدول بقسوة متناهية أمام عينيها، لم تعش بفرح سوى فترة قصيرة جداً فسرعان ما بدأت الدنيا تتفتح من حولهما، لا تعرف لماذا ظنها تتفتح له وحده دونها، اندفع وراء العمل وتركها. العمل يكبر والمسؤولية تمتص وقته وجهده، هو يقبل وهي تنحسر، هو يعلو نجمه وهي تتوارى. صبرت وأعطت، رفضت وتمردت، ثم سكتت.

لشدما تغير. أصبح على حد قوله رجل سوق، كل شيء بلغة السوق، لكل شيء ثمن، كل عرض عليه طلب، وكل طلب يتطلب عرضاً، والحياة تمشي، تتلون فيتلون معها، تتشقلب فيتشقلب، تغلبه فيتنازل عن ملامحه وأفكاره ومقاومته، سقط بنظرها، وكبر في أعين الجميع.

تغيرت هي أيضاً، أصبحت عصبية المزاج، كأنما الحياة تفر منها، لم تعد الأهم، ولم تعد المعنى الحقيقي في كيان أقيم أصلاً من أجل اتحادهما، لم يعط الأمر الأهمية اللازمة، كان رده قاطعاً مثل حد السكين التي يفصّل بها أيامه ومطامحه.

صارت من وجهة نظر لا تطاق، صارت مصدر إزعاج ، شيئاً يعيق خطوات نجاحه، شجارها المستمر يصدع رأسه ولا يرى له سبباً،

حل الإعراض محل التفاهم والحب، لم يثر ذلك اهتمامه بقدر ما كان سبباً في المزيد من العذاب.

مدت يدها تمسح دمعة سالت على خدها، سبقها وبأصابع حنونة مسحها، هل رآها في الظلام؟ كيف وهو الذي كان يثور بمجرد أن يلمحها في عينيها؟ لم تتساءل رغم دهشتها، عليها أن تنتظر، عليها أن تروض نفسها على عودته كما عودتها على غيابه وإهماله، تنهدت بارتياح والتصقت به لتنسى مؤقتاً أوهامها ولتعتاد على وجوده الحقيقي مرة أخرى.

الأيام تمر، والحال على ما هو عليه. بدأت تتصرف بكل أمر تراه دون الرجوع إليه ودود السؤال والمحاسبة. همست لصديقتها المقربة منها والتي كانت في زيارتها، تفرج عن صدرها كدرها بعد طول معاناة وأرق، وجدت الجواب أهون مما تتصور، فقد ضحكت الأخرى قائلة:" إنه تبدل طبيعي في خريف العمر، دعيه يحاول أن يعيد التوازن إلى حياته بالتمسك بجوهرها بعد أن قلت اهتماماته".

أجابتها بمحبة:

– لكنه ليس عجوزاً إلى هذا الحد.

قالت بجدية:

– كثيراً ما تستبد بالرجال أعمالهم ويأسرهم النجاح بل ويفتنهم، لكن في هذه الفترة بعد أن تستتب الأمور يعيدون ترتيب أوراقهم لئلا يخسروا أي شيء.

قالت بفرحة ساذجة:

– أحقاً ما تقولين؟

أجابتها بثقة المجرب:

– صدقيني..لا شيء آخر، لا تقلقي بل اطمئني.

لم تهدأ ولم تطمئن، فتلك الليلة أرقت أكثر من أي ليلة، بدأت تعد العدة لخوض قضية ساخنة برزت على الساحة، تبادل الأدوار، وهي قضية على جانب كبير من الأهمية. قفزت حيرة أشد إلى نفسها، هل ستنجح في المنصب الجديد ؟ وأين مكان ذاك الأسد الذي صال وجال وكاد يفترسها؟

صباح يوم آخر وقد استعدت للسير في برنامجها اليومي المعتاد بكافة مسئولياتها، فوجئت به يعود قبل موعده بساعات، هرعت نحوه فرحة وقد اعتبرته كسباً جديداً من تلك التغيرات، لأول مرة تتقبل تغيراً جديداً دون تساؤل. جلس على مقعده المفضل وأجلسها بقربه قائلاً:

– أود أن أخبرك بمشكلة تعترضني فهل أنت على استعداد لتشاركيني حلها.

ضحكت جذلى وقالت:

– جرب..

قال بهمس:

– اسمعيني للنهاية ولا تقاطعيني. لقد مرت السنون بسرعة، فجأة وجدت نفسي رجلاً غنياً معروفاً، احتجت إليك، إلى الزوجة، افتقدتك

فوجدتك بعيدة، في واد آخر. تعرفت على امرأة أخرى، وجدت وجودها بجانبي أمراً بالغ الأهمية، تذكرتك، وعقدت مقارنة بينكما، رغم أنني وجدتها تناسب المكان أكثر منك، رفضت الفكرة، أو لعلي أجلتها، حاولت إصلاح ما أفسد الدهر بيننا، يبدو أنك لن تستطيعي الوصول بسرعة إلى حيث أنا. لقد تزوجت من الأخرى، اشترطت إعلامك، ماذا تريدين مني؟ إنني على استعداد لتلبية رغباتك.

ابتسمت لنفسها مهنئة، تعرف هذا الصنف من الناس، لم يطمئن قلبها له ولا لتغيراته، نظرت باحتقار، قالت:

– ليس لي من مطلب سوى ما طلبته منذ سنوات طويلة، حين أردت أن أنجو بنفسي من براثن التنين الذي ابتليت به، كنت أريد أن ارتق الصدع الذي سببته في حياتي. تلك الأيام رفضت، لعل التوقيت لم يكن في صالحك، اعتقد أنه الوقت المناسب الآن بل هو المطلوب والمريح. لقد استغليت حياتي حتى آخر قطرة، ولكنك أخيراً كافأتني. لم يكن لي من مطلب طوال حياتي سوى هذا الفراق الأبدي، تمنيته كثيراً، لكن ما كان له أن يتحقق ما لم تكن المبادرة منك.

لا أريد أن..أعرف

"**تعب** كلها الحياة " هذا صحيح، لكن أيعني أنه يحق لأحدنا أن يغرق في هموم نفسه ومشاكلها حتى الألم ويتناسى الآخرين؟ يتناسى أنه فرد ضمن مجموعات كبيرة تشاطره العيش، في البيت، في الحي، في المدينة، في الوطن، في العالم أجمع؟ طبعاً لا.. وصول شيء مثل هذا إلى عقول الناس وقلوبهم هو دور الإنسان الفنان، المبدع على أي صعيد، ودور الكاتب بشكل خاص. ليس دور العالم ولا دور رجل الدين ولا دور الحكومات، بل هو دور الفنان وحسب" .

أنهى الأستاذ أسعد الندوة الأدبية الأسبوعية بهذه الكلمات ملخصاً بها المحور الذي دارت حوله الندوة. كانت هذه عادته، يترك عقول سامعيه مستفزّة تحاور حتى نفسها، خاصة نحن المشتغلين بالأدب وبعض طلبته ومريديه. أخذ بجمع أوراقه استعداداً للخروج. ابتسم لنا

محيياً وتركنا بخطاه الواثقة الثابتة. تدافعوا خلفه تاركين القاعة وما زالت أجواؤها تعبق بحماسة ذاك اللقاء.

خرجنا دفعة واحدة متراكضين متضاحكين، كان بعضنا يحاول اللحاق بالأستاذ للتعليق على الحوار، بينما تجمع آخرون لمناقشة ما دار من حديث، مرددين العبارات التي فتنتهم وسكنت عقلوهم. كان كلامه الجميل المنمق يخلخل في النفس أي هوس تجاه ذاتها، ويوجهها في الاتجاه الصحيح، خاصة أننا كنا شباباً في بداية مراحل العطاء، انتهينا للتو من دراستنا. بدأ بعضنا مرحلة الدخول الفعلي إلى معترك الحياة من أضيق أبوابها وأرقى مجالاتها، الكلمة، في الإبداع الأدبي والشعري والصحافي، مجالات تثير في نفوس مرتاديها الشعور بالفخر والتفرد، قد توصلها إلى هوس الغرور.

انسحبت من وسط المجموعة مبتعدة، لوحت للجميع مودعة، بينما ابتسامة حزينة مفتعلة تطفو على شفتيّ. واجهتني نظرات الاستغراب والتعليقات لعدم رغبتي في المشاركة كعادتي، فأنا من أشد المتحمسين للأستاذ أسعد، بل كثيراً ما كنت أفهم خطأ، ومع ذلك لم أبال، ولم أحاول مرة واحدة محاولة تصحيح وجهة النظر الخاطئة، كنت أعتقد أنني أكبر بكثير من أي شبهة وكذلك هو.

أسرعت الخطى متجاهلة إحساسي بتلك النظرات وهي تخترق ظهري، لن يعرف أحد سبب صمتي بسهولة كما لاحظوا ضيقي. كنت قد وصلت فعلاً في تلك الفترة إلى قمة معاناتي مما عرفت عنه. سرت

متجهة إلى البيت، لم تستطع طريقتي الجادة في المشي والتي تلهيني عادة عن كل ما حولي أن تأخذني من أفكاري. مثل اسطوانة مستهلكة تطن في رأسي كلماته، الالتزام والمبادئ والأخلاق، والمسئول الشجاع، والمواطن الثوري، والإنسان المتطاول والمتسلق وكل ما يسكبه في آذان تستمع بصمت مهيب. ما أجمل ما يقوله ولكن ما أقسى أن تكتشف أنه غير مقتنع بما يقول، مجرد شعارات ينادي بها من أجل المكانة العلمية التي يتمتع بها.

الازدواجية بين القول والفعل تقتلني، لا أجد مبرراً لمن يفعلها، خاصة أولئك الذين يصدعون رؤوسنا بالكلام الكبير والجميل، يصرخون معترفين بحق الإنسان بالحرية والمساواة والعدالة، مؤكدين أنها وحدها تمنح للروح القوة العظيمة، تلغي من قاموسهم صفات الخوف والضعف والهوان. تمنيت اليوم أن أقف، وأطبّق بجدارة وبشكل حيّ ما يدعونا إليه، فأبدي رأيي فيما قال آنفاً، لكن بناء على ما عرفته عنه.

مشاعري تخالط أفكاري، أتساءل بوجع: لماذا أصبح يركز على ضرورة الخروج من قوقعة الذات والاندماج كفرد، وكإنسان مع الكل؟ وكيف يستطيع أن يحذر من الاندفاع وراء تحقيق رغبة أو غاية خاصة متجاوزين قوانين السماء والأرض وهو يفعل ما يحذر منه؟ هذا شأن معظم الواعظين في كل زمان ومكان، يدينون ويتوعدون بلا رحمة من سلك واحدة من تلك السلوكيات، بل يعتبرونها من الآثام الكبيرة التي لا تغتفر وفي أعماقهم يغفرون لأنفسهم أو يجدون لها مخرجاً.

قال اليوم بسماحة طاغية: " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم؟ لعله انزلق إلى مثل هذا الوضع ولم يعد قادراً على استدراك الأمر ، فعمد بطريقة غير مباشرة إلى النصيحة ليحمينا من الانزلاق؟ هذا الاستدراك تحاوله مشاعري تجاهه لتحميه من العيب، لكن للعقل مقاييس أخرى، يقفز الفكر المتوثب لائماً النفس: ما هذا الكم من حسن النية في الحكم على الآخرين؟ لماذا لا يكون الحذق الماكر من أجل الاستمرار في إيهامنا بأنه إنسان مثالي صادق معنا ومع نفسه؟.

اليوم حماسته غير عادية، كان يتكلم ونظرة عميقة وثابتة تطل من عينيه تسحر العقول قبل القلوب، قال وهو ينظر نحوي بشكل مقصود: " إن امتلاء الإنسان بنفسه والعيش لها فقط يقوده في النهاية إلى فقدانه الإحساس بذاته دون أن يفطن لذلك" هل عرف أنني على علم بأدق أسراره؟ أعتقد ذلك، فقد أصبح همه انتزاع الشك الذي زرع في رأسي، كان يظنها مجرد شكوك لكنه لم يعرف أنني منذ شهور طويلة، وبعد أن سمعت ما سمعت، بدأت التحري عن سلوكياته حتى توصلت إلى ما يؤكد ازدواجية مواقفه.

في نفسي قدر كبير من الغم، وفجيعتي به كبيرة. فكلما أخذت تصرفاته تتسم بالمبالغة في تأكيد مثاليته، تأتيني كدليل على صدق ما عرفت. صحيح، لم يعد لكلامه الصدى والتأثير ذاته في عقلي، فلكل ما يقوله منذ شهور وقع مختلف، يزعزع إيماني بمدى ولائه لأفكاره التي

يطرحها أمامنا للنقاش، ويكتبها في مؤلفات عديدة تصبح مراجع لكل متخصص في الأدب أو هاو له.

واصلت السير بجدية أكثر، ووددت الهروب فعلاً من الحوار الناشب بيني وبين نفسي، مناظرة تمزقني، ترهقني، تخيفني، فالتسليم بما طرأ على تفكيري تجاهه وتصديقه يعني التزامي بضرورة تغيير الكثير من الأمور ربما الثوابت منها. بعض مشاعري موالية تماماً لأستاذها، بينما هناك أخرى تنفر منه وتدينه، غيرها تحلل وتحاول أن تجد له الأعذار.

هذه عادتي. أتعدد في داخلي حين يستعصي علي الفهم فأحبط، أضيع في متاهات عقلية تستغرقني تماماً معظم الأحيان. لم أخبر أحداً بهذا الانقسام النفسي سوى الأستاذ أسعد، وفي حديث مشوق ومطول أوصلني إلى قناعة تامة بأن ما أحس به طبيعي بل حقيقي، وأكثر من ذلك دليل ثراء نفسي.

الأستاذ أسعد، آه..ما كان أسعدني به، كيف يأتي اسمه في فكري ولا أحس به، وقد كان زمناً طويلاً أقرب الناس إلى نفسي، والشخص الوحيد الذي قبلت مساعدته على رسم خطوات مستقبلي، ليس الأدبي فقط بل والحياتي. له وحده أستطيع أن أفتح صدري بكل أسراري بصدق وأمانة وأتقبل رأيه عن طيب خاطر.

لم يكن لي وحدي بهذا الشكل الحميم بل كان لنا جميعاً رائداً ومعلماً حقيقياً. كلامه لنا نحن الجيل الجديد المتطلع نحو مستقبله برجاء، يفتح أمامنا كل الأبواب والنوافذ أيضاً، فيبدد الخوف والشك

والاعتقاد بأن الدنيا تعاندنا والجيل الأسبق يعاندنا والغد يعاندنا كما كان الأمس تماماً. كان يدخل إلى صميم أعماقنا، يحاول أن يعلمنا كيف نصل إلى لب ثمرة الحياة ولا نكتفي بالقشور.

لن أنسى نقاشنا ذات يوم حول الفرق بين الجيلين، نحن ومن سبقونا – كنت وقتها لم أزل أقدس كل ما يقوله أو يفعله– حاصرني بنقاش طويل مقنع، دفعني في نهايته للاعتراف بأننا جيل تائه متفكك، فقلت مسالمة:

– عندك حق، نحن جيل متعب، لا يعرف كيف يعيش ويسعد ويفرح.

فرح باعترافي فردّ قائلاً:

– هذا صحيح، سأخبرك لماذا. أكثركم لا تغوصون في عمق الحياة، تكتفون بقشورها، ترضون العيش على هوامشها، تتعلمون من أجل حمل شهادة والشهادة من أجل الوظيفة والوظيفة مظهر أو راتب، وكل هذا لا يوصل بحال من الأحوال إلى الأمل المرجو. ما فائدة مبادئ أو فكر أو علم إذا لم يجعل صاحبه سعيدا وإن حصل على المركز الكبير أو المال؟. اسألي نفسك هذا السؤال، وابحثي، وحين تتوصلين للإجابة أوصليها للناس، وهذه أهم مهام الكاتب .

دائماً كلماته تترك وجعاً في عقلي، فما بالي اليوم أعاني الوجع ذاته لكن في عقلي وقلبي معاً؟ الأستاذ أسعد باحث وشاعر وأديب، وهو أستاذ جامعي لمعظم المترددين على ندواته الأدبية الأسبوعية في المركز

الثقافي، أنشأ دار نشر "النوابغ" وتصدر عنها مجلة "الغد" مجلة أسبوعية تعنى بالأنشطة الأدبية الصاعدة. من أجل ذلك، وأشياء أخرى عظيمة، كنت أتعلمها منه، اعتبرته علماً ومثالاً، فواصلت بعد تخرجي من الجامعة التردد على ندواته، والمساهمة في مجلة الغد، حتى بعد أن بدأ اسمي يأخذ طريقه إلى عالم الأدب.

كنا مجموعة من الشباب نلتف حوله في كل ندوة مثل المريدين لشيخ طريقة، لا يرمش لنا جفن ولا تفوتنا كلمة. كان يحثنا على مناقشته بل ومعارضته، بل ويطلب منا حين نقرأ لأي أديب أو مفكر، ألا نأخذ ما نقرأه كشيء من المقدسات بل كان يصرّ على أن نعتبر أنفسنا مع الكاتب وجهاً لوجه، نناقشه ونعارضه حتى نقتنع، قلة منا استطاعت ممارسة ذلك الحق معه شخصياً، وكنت واحدة من تلك القلة.

اليوم بالتحديد لم يكن بد من التدخل فالمناقشة بلغت ذروتها حول العلاقات الإنسانية، الصداقة والحب أو المحبة بكل درجاتها، كان رأي الأستاذ أسعد واضحاً الغرابة على مثله منذ البداية، كان مؤيداً رأياً فلسفياً يقول "أن العلاقات بأي صورة من صورها لا تقوم إلا على أسس ثلاثة منفعة ومتعة وفضيلة" ثم قال بعد صمت وابتسامته تتسع ليعطي للكلام صفة التندر "لم يعد للثالثة من ضرورة. العلاقات أصبحت تبنى في هذا الوقت على المصالح، إذن على منفعة دائمة ومتعة خالصة متبادلة"

تميزت نفسي غضباً، إثر تأثري بما عرفت وسمعت بل ورأيت مؤخراً من سلوكيات الأستاذ أسعد، طبعاً كان ذلك بعين وأذن جديدتين

وتقص طويل ومستجد على نفسي، ما كان من الممكن أن أفسر أي كلام منه لي أو أي سلوك تجاه بعض زميلاتي تفسيراً يجرح ولو جزئياً مكانة الأستاذ العظيمة في نفسي. الآن، للأسف الشديد، رأيي المستحدث فيه يجعلني لا استهجن ما يقوله مستخفاً بالعلاقات الإنسانية، فيجردها من النبل والفروسية والخلق الرفيع. قلت:

– العلاقات برأيي المتواضع يا أستاذ هي صداقات على درجات متفاوتة، كل درجة منها لها مواصفاتها وحدودها، ولا يعني هذا أنها مشروطة "بإما كذا وإما لا". هناك الصداقة والزمالة، الصداقة والحب، الصداقة والتجاذب بين شخصين، الصداقة والتقبل الاجتماعي. لكل نوع خصائصه من حيث العمق والخصوصية ومدى التفاعل بين الأشخاص.

– لا أظنك قد ابتعدت يا آنسة عما أردت قوله، لكنني قلته ببساطة وقلته بتقنين وتحديد. ليس من عادتك المناقشة بحدة، ترى هل مس الحديث جرحاً ما في نفسك إثر علاقة حب أو صداقة فاشلة؟

شعرت بالقهر وبرغبة قوية في البكاء، ليس من جرحه لمشاعري بتلك الطريقة الفظة، ولا لأنها المرة الأولى التي يجرح فيها مشاعر كائن من كان، ولكن للخيبة التي ملأت نفسي منه، وقد كان الأغلى والأحب إلى نفسي، فانلجم لساني.

اقتربت من البيت، ابتلعت ريقي مرات قبل الدخول ليبدو صوتي طبيعياً، بل ورسمت على وجهي المتجهم ابتسامة، يبدو أنها كانت حزينة أكثر من اللازم، فانهالت عليّ الأسئلة عما أحزنني بهذه الصورة،

عاودتني الرغبة في البكاء من جديد، تعللت بأسباب واهية مختصرة الطريق عليهم وعلى نفسي، ودخلت غرفتي رافضة تناول الطعام.

لحق بي أبي وهو صديقي المقرب الذي يفهمني كثيراً ويحترم آرائي وأفكاري حتى وإن فوجئ بها. جلس على حافة سريري، مسح على رأسي بعطف وحب وقال:

– لماذا لا تجالسيننا بعض الوقت؟ اعتقد أن هذا يساعد في التخفيف عن النفس.

لم أرد، من قال إنني أريد التخفيف عن نفسي، على العكس أريدها في حالة استنفار قصوى لأعرف حقيقة الإنسان الذي سكنتني أفكاره ومبادئه وأخلاقياته.

حين طال صمتي رأيت نظرات أبي توحي بأنه بانتظار أن أقول أي شيء، أسندت رأسي على حافة السرير، كانت دمعة تتمهل في الانسياب منتظرة الأمر مني حسب تعبير أبي، تساءلت بحزن:

- هل من الممكن أن يختلف مظهر إنسان عن مخبره، أكاد أجن؟

قال بصوت خفيض وكأنه يخاطبني من داخلي:

- أهو الأستاذ أسعد مرة أخرى؟

هززت رأسي بالإيجاب فأكمل:

– لكن سمعتك مراراً تتندرين بأنه كان يظهر خلال الندوات اهتماماً خاصاً بالجنس اللطيف من الهاويات للأدب، ألم تقولي بأن اهتمامه يزيد

في حال كون الفتاة جميلة؟ ألم يكن يقولها بمنتهى الصدق إن المرأة الجميلة والذكية معاً هبة سخية من السماء؟ ".

– كنت أرى أن مثل هذا السلوك ليس أكثر من إثارة حماسة الشباب دون استثناء، فقد كان التنافس على أشده بين البنات على لفت نظره وكسب وده وتشجيعه، ويصير الفتيان على أعلى مستويات الغيرة والرغبة في التفوق.

تنبهت فيّ المرأة التي لا أعرف متى تثور ومتى تسالم، ففجأة تكون في غاية النزاهة وأخرى في غاية الشراسة. قلت حاسمة الموقف:

– الإنسان كلمة وموقف وقد سقط الأستاذ أسعد وانتهى الأمر.

– آمل أن لا تضللي نفسك، آمل أن يقتصر الأمر على مكانة أدبية عالية رفعت تلميذة أستاذها إليها، ليس لك من أمره شيء أكثر مما يقدمه لكم وأعتقد أنه كثير. إذا كان في الأمر شيء أكثر من ذلك فأرجو أن تعيدي النظر والتفكير في مشاعرك تجاهه.

– حتى أنت يا أبي؟

انقضى الأسبوع وجاء موعد الندوة. كنت قد توصلت إلى قرار بعد أرق عدة ليال بعد حواري مع أبي، نعم أحبه، ولكننا لا نعترف بهذه النوعية من المشاعر، نعم أغار، لكن له وليس عليه. معضلة أليس كذلك؟ لا بأس سيفهم الجميع ذات يوم.

اليـوم سأناقشـه وأصـارحه، وإذا أتيحـت لـي فرصـة إثـارة غضـبه سأفعل، سأتوصل إلى حقيقته، وبعدها أقدر مدى الضرر الذي وقع على نفسي، متمنية ألا يكون بهذا القدر من السوء الذي ملأ عقلي وخيالي.

لـم يغب عن فكري طوال رحلـة الطريـق. تـرى كيف مزاجـه اليـوم؟ قلما يغلب عليه مزاج الأديب الباحث الذي يبدو غالباً مهموماً وسارحاً في ملكوت خاص. الأستاذ أسعد معظم الأحيان نموذج مختلف، متفائل دائماً، متواضع يتباسط مع الجميع.

رفعت رأسـي قليلاً حـال دخولي إلـى المركز، رأيتـه يتمشـى جيئـة وذهاباً على الشرفة المقابلة، سرت ببطء عبر الممر المفروش بالحصى الملونـة، أنتزع من بينها كعب حذائي بتؤدة، كأنني أمارس لعبة تمتص تـوتري الزاحـف إلـيّ، كلمـات أبـي تـدور فـي فكـري مثـل زوبعـة، فأهدئ نفسي وأعيد ثقتي ويقيني بأن مشاعري نحوه بينة، لا لبس فيها ولا تلون، أريده في حقيقته تماماً مثل الصورة التي رسمتها له في وجداني.

كان وحيداً، كثيراً ما رأيته وحيداً ومبكراً، لكنني في هذه المرة اتهمته بأنـه بانتظـار واحـدة بعينهـا مـن المنتـدى أو أي واحـدة والسـلام، التفت نحوي لم يميزني عن بعد، مد قامته الفارعة وشعاع التقصي يصلني من عينيه فرفعت له يدي محيية على طريقتي، رد بإيماءة من رأسه، ثم أدار وجهه إلى الجهة المقابلة، وتجمد على ذلك الوضع. وصلت قربه وحييت رد تحية بالكاد سمعتها دون أن يستدير نحوي، تبددت رغبتي في الحوار،

وقفت حيرى بانتظار إشعار منه أن وجودي مرغوب فيه، تشاغلت بأوراقي بينما أفكاري تدور حوله، قال دون أن يلتفت نحوي:

- لماذا أنت بعيدة؟ هل فاجأك وجودي؟

– اعتقدت أنك من تفاجأ بوجودي، كأنني أتيت في وقت غير مناسب. أتتجاهلني عقاباً على نقاشنا في الندوة السابقة فرددت تحيتي بفتور؟ لعلك لم تعد تؤمن أيضاً" أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية". كثيراً ما أكدت على أنني تلميذتك النجيبة، أسير على نهجك وأبشر بخير، وتعاملني معاملة خاصة.

اقترب مني ونظر نحوي باستعلاء قائلاً:

– كنت أريد أن أتناسى الموضوع ولكنك تثيرينه بطريقة استفزازية فيها شيء من اتهام بقولك" لعلك لا تؤمن أيضاً" ما معنى هذا التساؤل؟

– أخبرني أولاً إن كنت تظن أن اختلاف الرأي يفسد الود أم لا؟

– طبعاً لا.. ولكن تقع على عاتق الأستاذ، بل وعلى كل مسئول مهام جسيمة لا يمكنه التغاضي عنها. بالنسبة للأستاذ أهمها فتح مجال النقاش بشكل منطقي وموضوعي، وبناء على تفكير وروية وسعة أفق. الأسبوع الفائت وأثناء الندوة، كان من الممكن أن أتقبل منك كما من غيرك كل رأي برحابة صدر على أن يحتفظ المتكلم بالمسافة الضرورية بيني وبينه، نحن أولاً وأخيراً داخل المجتمع والناس، أستاذ وتلميذته، أليس كذلك؟ أما حين أعاملك بشكل خاص فما ذلك إلا ليقيني أننا سنكون في القريب العاجل زميلين في مجال واحد وربما منافسة.

ضحك بلا ود ثم استأنف قائلاً:

– أفزعني رأيك، ليس لأنه شكل لي مشكلة ما، بل لأنه وضّح قلة خبرتك في العلاقات الإنسانية، حسبتها وأنت تتكلمين عنها كأنها قطع من القماش تفصل حسب الاحتياج وحسب المناسبات. المشاعر يا عزيزتي مهما اختلطت واختلفت ابتداء من الانطباع الأول حتى النهاية يجب أن تتحدد شكلاً وهدفاً، إذ لا بد لها من شكل ومن هدف. لا بد أن يراعى فيها نوعية الناس، قدراتهم، كفاءاتهم، استعداداتهم النفسية، الأخلاقية، خلفياتهم ثقافاتهم.

أجبته باندفاع وكأنني أرد على أبي أيضاً:

– ماالذي يمنع أن يحس الإنسان بالإنسان بعيداً جداً عن النوع؟ ما يمنع أن يقع شخص في نفس الآخر موقعاً حسناً فيقربه إليه ويقترب منه دون غايات وأهداف لا آنية ولا مستقبلية؟ قد يرتبط به ارتباطاً روحياً وفكرياً، ما يمنع أن يصبح أقرب إليه من نفسه إذا ربط بينهما ود وتفاهم وصداقة قوية، وإعجاب بالشكل والمضمون معاً؟

– ليس هناك ما يمنع.

قلت بدوري:

– إنني أفرق كثيراً بين هذا وبين مشاعر رقيقة أخرى، تلك التي أسميها حباً، تلك التي تعني ذات الشخص وخصائصه، والتي لا يمكن لإنسان أن يصادفها إلا مرة واحدة في العمر. المشاعر عموماً أساسها

انفعالات تتشابه فيصعب تحديدها، قد تعتبر حباً وهي ليست كذلك، وقد تعتبر صداقة وهي أعمق من ذلك .

اندهش للحوار كيف خرج عن محوره الأساسي، هز رأسه بمرح، واكتسى وجهه بفضول لطيف، تابعت ببساطة:

– ماذا لو أبدي إعجابي بشيء في شخصك، مثلاً: نظرة عينيك، هندامك، مشيتك المعتدة، الصدق والصفاء اللذين كنت ألمحهما في عمق عينيك فتحا لي عالمك الرحب على سعته فدخلته وأحببته..

قاطعني ضاحكاً:

– ولا يكون هذا غزلاً بل إعجاباً؟ هل حقاً ترينه هكذا فعلاً؟

تجاهلت سؤاله وتابعت :

– آسفة يا أستاذ لم أكمل فكرتي بعد. سؤالي هو الآتي: أيختلف هذا عن إبداء إعجابي برأي قلته أو فكرة نيرة طرحتها أمامنا أو قرأتها في كتاباتك، فأهتف لها من أعماقي، أو إنجاز ما، أحس مدى تفوقك فيه فأشعر بالفخر كأنني من أنجزه؟.

فاجأني بلطمة قوية :

– أعتقد يا آنسة أنك تحبينني، لكنك ممن يموهون الحقائق أو يخلطون الأمور.

تركني قبل أن يسمع ردي، سار فارداً طوله، ذراعاه تتأرجحان على جانبيه بإهمال يتناسق مع خطواته المتمهلة، بدا مختالاً، لم أستطع أن

أصفه باللفظ الحقيقي الذي طغى على تفكيري فأقول إنه بدا مستهتراً وكأنه لا يرى الدنيا إلا من خلال نفسه.

بقيت مسمرة في مكاني، يملؤني حنق يتدفق في كياني، يلتهب وجهي أغمض عيني على سخونة دموعي، أريد أن أصرخ، أن أتساءل: لماذا ينحدر في نظري بسرعة مرعبة؟ لماذا يسقط إلى عمق هاوية تبدو بلا نهاية؟

كان يعرف الحالة التي تركني عليها، فقد ظل يرقبني، وابتسامة تلوح على شفتيه كأنها تخاطبني عن كل ذلك البعد قائلة: احترقي بغيظك. لماذا يتعمد أن يزيد من حيرتي التي تكاد تقتلني؟ كنت أحترق فعلاً، ماذا يريد؟ ولماذا هذا التغير في أخلاقه بشكل عام وفي معاملتي بشكل خاص؟

ابتدأت ندوتنا بسؤال وجهه أحد الشباب، كان شاعراً ولكنه لم يحقق إنجازاً يذكر رغم مرور سنوات عديدة على ممارسته لتلك الهواية كما كان الأستاذ أسعد يتوقع. سمعته يقول:

– لماذا نصادق "س" من الناس دون تبرير مقنع؟ بينما ننفر من "ص" من الناس قبل أن نحتك به أو نعرفه؟ لماذا أقول عن نفسي أحببت فلانة ربما قبل أن أراها؟ بينما أخرى أوصلت لي الكثير من المشاعر فلم أستطع التجاوب؟

سمعت الأستاذ يتضاحك قائلاً:

- هيا ساعد نفسك يا بني قليلاً لتصل إلى النضوج العاطفي، وتصقل موهبتك الشعرية، حقيقي أنت شاعر موهوب وفنان لك حس خاص، لكن سذاجة الطفولة تستبد بك. هلا نسيت تلك المشاعر البدائية المريضة التي وصفها الشاعر في بعض أبياته، جننا بليلى وليلى قد جنت بغيرنا.

نظر نحوي بتأن غريب، ازداد غيظي، وغبت عن الوعي بشكل إرادي حتى انتهت الندوة دون أن أشارك أو أعلق. تنفست الصعداء مع انتهائها وغادرت القاعة إلى المقصف، ما زلت أتحرق شوقاً للحديث معه، جلست وظهري للمدخل، غارقة في تأمل المنظر الممتد أمامي، كانت السماء محمرة من هجوع الشمس نحو غروبها.

كنت بانتظار وصول الشاي الساخن الذي طلبته، حين امتدت يد نحوي تقدمه لي وصوته يقول:

- هل ستبقين هنا؟ أتتعمدين الابتعاد عني؟ أعرف أنك لا تحبين الغروب، وحيث تجلسين ستشاهدين أفول شمسك التي تحبينها.

تناولت الشاي وجلست احتسيه بتمهل دون أن التفت إليه فقال:

- ظننت معرفتي حالة من حالات مزاجك تسعدك وتشعرك بمدى قربي منك.

- لن نتحادث يا أستاذي قبل أن أعرف من فينا الذي يخلط الأمور، ولا يفرق بين المشاعر. عرفت أنك رفضت نشر قصتي في المجلة بعد أن أبديت إعجاباً بها وموافقة عليها. كنت تفعل ذلك

وباعترافك لتثير أعصابي قبل أن نتوصل إلى اتفاق أن علاقتنا قد تجاوزت مرحلة الأستاذ والتلميذة وتخطتها إلى صداقة متينة، كل منا يعتز بها. فما الذي تغير؟

- اسألي نفسك، وإذا توصلت إلى الإجابة فأخبريني .

استدار مبتعداً وجلس على المقعد المجاور يتشاغل بمراقبة الشمس. كان قد هوى نصفها وراء الأفق ونصفها على مشارف الغروب، انتشر الشفق على المدى أمامي، يتجمع ثم يفترق بانسياب كجداول دماء رقيقة. ضاق صدري، كنت أحس بنضال الشمس قبل أفولها في آخر لحظات رحلتها اليومية. المنظر دون شك شاعري وخلاب، لكن ماذا أفعل بشفافية نفسي تجاه النهايات.

راقبت الوجوه الساكنة من حولي كأنها تسبح في ملكوت خاص، تساءلت أليس بينهم من يحس بوخز الحزن مثلي بأن الأفول الحتمي قادم؟

سمعته مشتبكاً في حديث مع زميلة من المترددات على الندوة في حديث صاخب حول الغروب ومعناه وأهميته، مبدياً استغرابه من بعض الناس الذين لا يحسون له بذلك الجمال الأخّاذ وإن كان يعني الأفول. ثم قال:

- الأديبة سميرة لا تحب غروب الشمس ولا تحب الموت ولا تحب الفراق ولا النهايات عموماً، أتعرفين عنها شيئاً مثل هذا؟

لم ترد، بل نظرت نحوي فقلت:

– إن ما يقوله الأستاذ فيه كثير من الحقيقة، في صغري كنت أحلم بأنني حين أكبر سأنقذ الشمس من الوقوع خلف الأفق. تصوري حالي وأنا أكتشف أنه أفول حتمي وقدري ولا حياة بدون ذلك النظام.

علقت الفتاة قائلة وهي تنظر إليه بإعجاب غير خاف:

– ما تقوله يا أستاذ يحتاج إلى مشاعر فنان عنده الكثير من الرقة، بينما الأديبة سميرة كما وصفتها بنفسك في الأسبوع الماضي حادة الطباع، وحدة الطباع كثيراً ما تقتل المشاعر .

التفت نحوي فوجدني محدقة به باستغراب، فقال ببساطة:

– كنت إذ ذاك أدافع عن نفسي بعد هجومك؟

– تدافع عن نفسك بعد هجومي؟ لم أفهم، أي هجوم تعني؟

قال بفتور:

– هجومك ولهجتك القاسية التي لم أفهم لها سبباً في الأسبوع الماضي، بعدها فهمت مغزى قصتك فأوقفت نشرها؟ هل من الممكن أن يكون رأيك فيّ بهذا الشكل البشع؟

ضحكت الصديقة المتربصة بالموقف ثم ما لبثت أن رفعت يدها وضربت كفها بكفه في سلام حار كأنما تهنئه على النيل مني، وغادرت المكان وتركتني في ذهول من تلك الطريقة في الوداع التي لا تكون بهذا الشكل السوقي إلا بين أشخاص عاديين جالسين في مقهى شعبي، لم استطع تجاهل ما حصل حين سألت:

– لماذا اعتبرت الرأي الذي طرحته في قصتي يعنيك شخصياً؟ على كل حال أخبرك بصراحة بأنني في حالة فزع من سلوكياتك معنا، إنك تحاول أن تشاغلنا جميعاً، كل واحدة على حده طبعاً، بل وسمعت أنك تقول الكلام نفسه لكل واحدة وتحاول إفهامها أنها المقصودة به، وهي بالذات من فجرت فيك ينابيع الشاعرية. هذا يجعل صداقتي ومحبتي لك محل إعادة نظر. ليس غريباً أن تكون قد فهمته خطأ.

– يسعدني سماعك حين تتركين نفسك على سجيتها، تتفعلين جداً دون مقدمات وتعبرين بغريزة الإنسان الأول عن مفهومك الخاص للحياة، تتركين هواجس قلبك تتحكم بك، وبحماسة شديدة تضعين نفسك وغيرك في قوالب قاسية لا تتناسب مع تجاربك الغضة، يجب أن تطلقي لخيالك العنان وتري أبعد من أنفك، أنت كاتبة يا آنسة.

لم أهتز بل قلت بهدوء:

– نحن شخصان كما ترى، أنا إنسانة مختلفة عنك كثيراً، لا أستطيع مثلك أن أنتزع صفة نفسي العاطفية الشخصية وأنظر إلى الأمور بتجرد عين العالم، وأتعامل معها بشكلها العام والجاف غير مهتمة بشيء معين. فأنا ..

– لا أمل .. لا تستطيب المرأة حديثاً لا تكون محوره، وبأسلوب معجز تحول الحديث عن كل مجرياته ليصبح كما تريده، عندها تتحدث بلا حساب عن نفسها وأحاسيسها، تشعر مجالسها بأنه المتفهم الوحيد

فتخصه بإسهاب يتدفق كالعقاب، متناسية أن المجالسة فن، وأن هناك ما يستدعي وضوح أحاسيس الآخرين.

أصبح يتسلى بجرح أحاسيس من حوله، قلت وابتسامتي الباهتة تحمل بوادر غضب:

- إنك إذن لم تفهمني، لأنني أنا من يفكر بالناس، كل الناس، وحين أفكر بنفسي، أفكر بها كواحدة منهم، وما ذلك إلا لأنني أطل عليهم وعلى الدنيا من أوسع الأبواب وأغناها.. الإنسانية.

قال:

- كيف تكونين قادرة على إعطاء الإنسانية حقها وأنت تنكرين على نفسك حقها ومشاعرها وتغالطين في وصفها وتسميتها؟

قلت ببساطتي التي غالباً ما تدهشه:

- آه.. الآن فهمت.. إنك تعني مشاعري نحوك، من قال أنني أغالطها أو أنكرها؟ إنها عندي فوق كل تسمية، لقد اخترقت الحواجز واستقرت بالوجدان أسميها صداقة، محبة، بل أكثر من ذلك .

قال بعصبية:

- هي هكذا لغز لن يفهمه سواك، تعتقدين أنها حق وحقيقة، تقيدينها بزوايا حادة، ماذا عن مشاعري نحوك؟ ألا تقدرين أنها ربما كانت مختلفة؟

لم أعكر صفو مشاعري مهما قال، سواء أراد استفزازي أم أراد السيطرة على الموقف، المسألة مسألة وقت، سيتآلف وأسلوبي وسيتفهم.

افترقنا دون وداع، كانت مشاعري مستفزة كأنني على وشك المرض، على وشك الموت.

تغيبت مرة وأخرى عن الندوة، وتوقفت عن الكتابة للمجلة ما لم تنشر قصتي التي أوقفها دون وجه حق. كان يسأل عني في كل ندوة، وحين تنبه إلى تكرار السؤال قال بطريقة عرضية " أرجو ممن يرى الآنسة المتغيبة أن يطلب منها إعادة بعض الكتب التي استعارتها من مكتبة المجلة" لم يجد الاقتناع على الوجوه فأردف ممتعضاً " أريد أن أعرف إذا كانت ستتوقف نهائياً عن الكتابة أم بشكل مؤقت؟"

لازمت البيت فترة من الوقت، كان الزملاء والزميلات يقومون بزيارتي بين حين وحين. كنت فعلاً بحاجة لمساعدتهم بوجودهم حولي، لم أكن أعاني شيئاً معيناً، اعتبروا الأمر مجرد ملل من الروتين، فاقترحوا فكرة الخروج سوياً للعشاء في عطلة نهاية الأسبوع.

كنت أثناء استعدادي للذهاب أشعر بكثير من الغبطة لهذه الدعوة التي جاءت في وقتها، كنت أسيرة الانهيار الداخلي الذي لا يراه غيري، تأثرت كتاباتي بصدمتي المروعة، أصبحت لا أرى إلا الوجه المظلم للحياة والناس وخاصة المقربين من نفسي.

في طريقي إلى موعد العشاء حاولت أن أبدو لنفسي قبل غيري أنني سعيدة ومنطلقة. هكذا دخلت المكان مبتهجة، أجلت نظري في الوجوه بسرعة باحثة عن الأصدقاء، كانوا جلوساً، رفعوا أيديهم ملوحين لي عن بعد، توجهت نحوهم مباشرة، وبينما كنت أعبر إليهم بين الموائد،

وقد انتقل البشر بين وجوهنا بسرعة البرق، رأيت الأستاذ أسعد جالساً مع الفتاة التي كانت تشاركنا محاورتنا الأخيرة وهي من الهاويات للأدب، ابتسم لي فتجاهلته، تخطيت مكانه، وجلست وقد أعطيته ظهري، وجدت أنه ومرافقته محل لغط الأصدقاء، يتكلمون عنهما باهتمام بالغ، ينقلون حركاتهما وإشاراتهما. تماسكت يداهما، اقترب بوجهه حتى كاد يلامس وجهها. لم يغفلوا شيئاً، حتى حركة تنقل أيديهما بين الأطباق والفم، كأننا نستمع إلى مباراة كرة القدم ينقلها متخصصون.

لم ألتفت حقاً إلا حينما قالوا إنهما يتضاحكان ويتمايلان بمجون، نظرت بفضول، كنت أراه فوق كل تلك التفاهات، تمنيت ألا يراني، وقبل أن أستدرك اشتبكت عيناي المندهشة بعينيه ونظرة انتصار لا تفسير لها تطل منهما، توترت قليلاً وقبل استعادتي التوازن من جديد فاجأتني صديقتي المقربة مني والجالسة بقربي تقف قائلة وأنفاسها تتلاحق:

– سأذهب للتحية.

انطلقت قبل أن أتمكن من منعها، فقد كانت بلمح البصر تقف بينهما، لاحظنا أنه رد على تحيتها بتحفظ، ثم أشار نحو مرافقته وقال شيئاً ما، كأنه يعرف إحداهما بالأخرى. عادت صديقتي بالسرعة ذاتها ولكنها عادت أكثر توتراً مما ذهبت، لم تنتظر أن يسألها أحد كانت تتكلم وهي تشنج ببكاء مكتوم وتجاهد لتوقف تدفق دموعها في مكان عام:

– أكاد لا أصدق ما أراه الآن وما سمعته، يقول إنها خطيبته، يقول لي أنا، تصوروا، أمن الممكن أن يكون إنسان مراوغاً بهذا الشكل المزري

وهو على هذه المكانة الأدبية؟ يعتبر نفسه معلم أجيال، بينما نسي أن يعلم نفسه.

قلت بهدوء مرددة قول أبي:

- ما لك وله؟ يقولون عن أمثال هؤلاء" خذ من أقوالهم ولا تلتفت لأفعالهم.

قالت بجدية:

- لكنه منذ شهور طويلة يلاحقني، يتقرب مني، ويقسم إنني ملهمته، وأنه ما أحس بامرأة قط كإحساسه بي، وأكد لي أنني أنا أيضاً أحبه ولكنني أموه الحقيقة عليه بل وعلى نفسي.

قلت مواسية:

- وماذا في ذلك؟

- ألا تدركين معنى أن يقول رجل مثله هذا الكلام لامرأة تكن له مشاعر لم تستطع تحديدها بعد. أحسست كأنه يدلني ببساطة على الطريق حيث يقف ينتظر. لقد صدقته، كان من المنتظر أن يتقدم لخطبتي أنا خلال أسابيع.

تذكرت أنه قال لي الكثير من مثل هذه الأقوال، صدقت حرارتها وصدقها ولكنني لم آخذها على معانيها الحميمة، تحدد بمدى صداها عندي، ترتبط بمدى ارتقاء عقلي وعاطفتي. ربما أكون قد فهمت، ولكني أردته أن يتعلم أن هناك عواطف كثيرة لا ترتبط بالطريقة التي يفكر بها. قلت وكأن صوتي يأتي من أغوار نفسي:

– لكنه قال لي أكثر من ذلك فلم أندفع، ولم أشأ أن أرفضه كصديق، أردت أن أستمر معه وأن احتفظ بمشاعري نحوه كما هي وأسعى جاهدة لكي يحسها كما أحسها أنا. أعني أريده أن يتعرف على علاقة أخرى غير ما يعرف، أردت أن أقول له؛ محبتي لك كما أنت في عقلي وليست كما أنت الحقيقة.

أسابيع عديدة مرت دون أن ألتقي به. عدت إلى المجلة بعد إلحاح مدير التحرير على إرسال مشاركتي الأسبوعية، كنت أرفض الكتابة إلى أن يفرج عن قصتي التي كانت على وشك النشر وأوقفت. استقبلني مهللاً ومادّاً يده قائلاً:

– إلي بالمادة التي تشاركين بها، لقد اضطررت إلى الاعتذار لقرائك عن تأجيل موضوعك أكثر من مرة.

قلت أمازحه:

– قصتي القصيرة أولاً.

كانت نداء وهي الفتاة التي كانت ترافق الأستاذ أسعد على العشاء واقفة حزينة وكأنها توقفت عن البكاء قبل برهة، حين تنبهت لوجودها تركت مدير التحرير وتقدمت منها أواسيها متسائلة عن سبب حزنها البادي عليها، لم ترد بل عادت إلى البكاء مرة أخرى، احترمت صمتها ولم ألح. سمعت مدير التحرير يؤكد لها أن الموضوع الذي أرسلته هذا الأسبوع كان نصيبه الرفض كالسابق وأن الأستاذ أسعد هو الذي رفضه. قالت دون حذر:

– لكنه أكد لي أنه سينشر كل ما يصله مني، وهذان الموضوعان بالتحديد، وعد أن يأمر بنشرهما قريباً.

هز الرجل رأسه نافياً، ولما رأى عدم تصديقها، أخرج الأوراق من درج مكتبه، تناولتها، وبمجرد أن فتحتها وجدت خطه بالقلم الأحمر في جملة مختصرة "غير صالح للنشر" . قلت أمازحها ولا أدري إن كنت أواسيها أو أهزأ بها:

– ما لك وللأدب؟ يكفيك أن تتزوجي من فارس الكلمة الأمثل في البلد؟

ردت بسذاجة:

– من ؟ أسعد..؟ أنا أتزوج منه..؟ إنه طائر، يحب التنقل بين كل الأفنان، يعتبر ذلك من دوافع تألقه الأدبي، إنه لن يتزوج أبداً. بل أعتقد أنه متزوج ولكنه يخفي هذه الحقيقة ليمارس هواية الظهور مع الجميلات، وما أكثرهن، والاستمتاع بمشاعرهن التي يعرف تماماً كيف يبتدعها، فتولد على يديه وتموت أيضاً على يديه.

– وأنت.. أتعرفين عنه كل ذلك ومع ذلك ترضين لنفسك أن تكوني واحدة من الجميلات اللاتي يحظين بتلك النعمة القصوى؟

– وماذا في ذلك؟ أشعر بكثير من الرضا حين يتقرب مني وحين يدعوني للعشاء ولقضاء وقت ممتع معه، أنا أيضاً أريد إرضاءه ليرضى بدوره عما أكتب ويمرره للنشر.

ماذا أسمع..؟ أكاد أجن. أتذكر مواقفه الكثيرة، أتذكر كلامه وآراءه، فأحزن، ويشتد حزني حينما أخلو لنفسي، لقد أحببته كثيراً ولكنه حب مختلف، ليس كحب هذه الجميلة، ولا مثل ذلك الحب الذي جعل صديقتي تتجاوز حدودها في مكان عام فتذهب إليه لتحرجه فيذبح كرامتها، ولا مثل الحب الذي يدعيه ويوزعه على كل الجميلات.

ذهبت في موعد الندوة لأقدم له كتابي الأول، تهلل وجهه وهو يحييني، متسائلاً بلهفة واضحة في عينيه ومع نبرات صوته الهادئة عن سبب غيابي، سرت في عقلي رعشة رعب من قدرته على الدجل. فأجبت ببرود:

– شكراً على اهتمامك وسؤالك عني أثناء غيابي فأنت صديق حقاً.

وتطرقت فوراً إلى الموضوعات التي غالباً ما نناقشها، تحدثت عن العدد الأخير من المجلة، تجاهلت الإشارة إلى قصتي التي لم يفرج عنها بعد، علقت على افتتاحية العدد، كان يكتبها بأسلوب فلسفي رقيق ومبسط، وقد كان موضوعها يدور حول ذات المعنى الذي أصبح يشغله في هذه الأيام، كانت عن سلوكيات الفرد ووجوب التوافق بين السلوك والبيئة المحيطة بنضوج ووعي. قلت:

– لم أفهم معنى أوردته حول التكيف الذي يعني تلاؤم الحاجات الغريزية مع ظروف ومتطلبات العالم الخارجي والأنا ...

فجأة رأيته يقاطعني متسائلاً:

– هل حقاً تعتبرينني مجرد صديق فقط؟ ألا تغالطين شعورك؟

رددت بسرعة:

– أكيد، ولا أجد مبرراً لكي أغالط مشاعري. على كل حال فأنت تعرف سهولة استمالتك. هذه مشاعري منذ البداية وإنني معجبة بها، وحريصة عليها إلى حد لا يوصف، بالشكل الذي تعبر به عن ذاتها.

قال بتهكم:

– إذن..سأعترف لك يا صديقتي بأنني أحب.. نداء.تعرفينها طبعاً.

طفا الاستياء على وجهي، التقط الإشارة بذكاء، لاحت في عينيه بوادر نظرة شامتة فقلت:

– آه.. أتلك الإنسانة البليدة؟ إنها غبية وتافهة.

– أ غيرة هذه أم تحذير؟

– لا هذا ولا ذاك، إنها المفاجأة. دعني أخبرك بشيء لم أخبرك به سابقاً. ظننت ذات يوم أنك مترفع عن طبيعة الرجل العادي الذي يخلط بين الحب والإعجاب، أعني أن لك حساً غير عادي، يحس بماهية الجمال بطريقة أبعد ما تكون عن تلك السوقية التي ينجذب فيها أي رجل لأي امرأة بلا مزية سوى جمال الوجه، أو سهولة الحصول عليها.

وقفت محيية وغادرت، ابتسامته تتسع، وبشر يطفو على وجهه، بينما عقلي يعلل إعجابي وانبهاري بالطريقة الفذة التي يتعامل بها معنا ومع كل من حوله، بسعة أفقه الذي يغلق الهوة التي تفتح دائماً بينه وبين الجميع، رأيته تواضعاً وخصلة حميدة، لم يصل لتفكيري أنه خداع.

غمرتني أحاسيس ومشاعر متضاربة كالعادة بعضها ضدي وبعضها ضده، صرت كأنني كرة مربوطة بخيط مطاطي طويل، طرفه الآخر معلق بإصبع يد سادية تتسلى بها، تضربها بعنف فتفر مذعورة ثم تعود مذعنة بحتمية لا مفر منها لتعيد التعذيب من جديد.

توجهت مباشرة إلى غرفة أبي، كان جالساً يقرأ كتاباً من تأليف الأستاذ أسعد، وضع الكتاب جانباً، والتفت بكليته ناحيتي، كان وجهي يحمل كل الأسى الذي يعتمل بداخلي. قلت:

– لم أجد فرصة بعد لأوصل له الحقيقة التي تعذبني، أبي أريد مناقشتك قبل أن ألتقي به. ما رأيك هل أحس بتغيير رأي به؟

– أعتقد ذلك، لذلك يقسو عليك بكلماته، لقد كشفته وهو الشديد الحرص على إخفاء خصال ربما يخجل منها، بل لعله يمقتها لكنه يمارسها كحالة إدمان لا يستطيع الخلاص منها. إذا كان هذا صحيحاً فأنت توقظين الإنسان السوي والحقيقي فيه

– هل تعتقد أنه في حقيقة جوهره إنسان.

– لا بد وأن يكون موجوداً، كنت أقرأ في كتابه الرائع هذا قبل حضورك، من صعب أن أغير نظرتي إليه. لا أجد الدافع لأن أفتش وراء سلوكياته. اعتقد أنه إنسان حقيقي ذكي ودؤوب، لا أظنه يجد الوقت لمثل هذا الذي تتهمينه به وإلا لما حقق كل هذا النجاح وهو في مقتبل العمر؟ صدقيه إذا تمسك بوجودك، فأنت وجهه الآخر، الإنسان الرائع فيه، الذي يكتب ويحاضر ويتخذ المواقف الحاسمة والرائعة.

بثبات وتحد بالغ ذهبت لأقابله آخر مرة، أردت أن أكون على طبيعتي وكما أحس تجاه تلك التغييرات التي انتابتني تجاهه، أطل علي ببساطته التي تلغي كل الحواجز، فيبدو فوق تلك الشكليات التي تخضع الأفكار والعواطف للتصنيف.

صحيح هذا هو الإنسان الذي أعرف، لكنني كنت واحدة أخرى غير التي كنتها قبل اللقاء الأخير، لم أعد على ثقة بشيء، ولا حتى قيمته في نفسي كإنسان. شيء ما يشد من عزيمتي على الصمود، فما أنا هنا إلا باحثة عن حقيقة الإنسان أو عن إنسان الحقيقة.

مد يده نحوي بصفاء نفس أعرفها جيداً فمددت يدي، ابتسم وهو يشد عليها وكأنه يتخبط للخروج من شرك فسأل بعطف:

– ماذا بك؟ هل أنت مريضة؟

تحركت بسرعة، أنوي إخفاء حيرتي من تدفق الأسئلة التي تدور في عقلي تحاول أن تتحرر أمامه من قيودي، قلت:

– لست مريضة لكنني مرهقة، جئت لأهديك كتابي هذا، فقط نسيت أن أعطيه لك في المرة السابقة .

– هل لي أن أعرف سبب تغيير رأيك فيَّ؟ لا أخفي عليك أنني جد حزين لهذا التغيير، فقد كاد كل منا يفهم الآخر كنفسه حتى جاءتك تلك الوساوس.

– ليست وساوس، إنها حقائق. من حقك أن تعرفها. لقد تتلمذت على يديك سنوات طويلة، من المفروض أنني أعرفك جيداً، ومتأثرة بك

جداً. النقاد يرون في أسلوبي الكثير من رقة أسلوبك، وصدق إحساسي ينبض من صدق إحساسك. سمعتك كثيراً وقرأت كل ما كتبت، ناقشتك حاضراً وغائباً، تأثرت جداً بك بكل ما قلت وما زلت تقول. هل أسلم وأتراجع الآن وأعتبر نفسي مخطئة في تقديري؟ أليس معنى ذلك أن أهدم بداخلي قيماً ومبادئ وأخلاقيات وسلوكيات ما زالت حية ينبض فيها الكثير من روحك؟ أرجوك أخبرني، من أنت؟

– من أنا..؟ ألا تعرفين من أنا؟

– لعله زمن التقمص، أصبحت مثلك. هل أصدق الصورة الثانية التي ظهرت عليها؟ أم أصدق الذي عرفته عنك كل تلك الأعوام؟ حاولت أن أناقشك ولكن لم أجد عندك تفسيراً لمثل هذه المشاعر سوى أنني أحببتك. وهذا غير حقيقي.

– لكن اهتمامك ملأ نفسي غروراً، فجأة رأيت نفسي أتصيد القلوب والنظرات. أريدك أن تعرفي أنني أحببتك ولكن..

قاطعته بحزم:

– أرجوك يا أستاذ أسعد أن تعطيني فرصة أعبر بها عن نفسي بشيء من الحرية. لا أريد أن أعرف ما الذي حصل معك، فما أتيت لأعرفه، بل أتيت لأعرفك، وأوضح ما غلق تفسيره وتحليله من وجهة نظرك كرجل مفتون بنفسه. المشاعر يا أستاذ التي تتهمني بأنني أغرقتك بها مشاعر قوية وصادقة وحقيقية، لكنها موجهة للإنسان فيك وليس للرجل تماماً كما أخبرتك ذات يوم.

– كانت تتدفق نحوي بشكل طبيعي، ببساطة ورقة وصدق.

– لكن فيها الكثير من الجدية، وهذا ما أسقطته من حساباتك حتى يأتي حساب البيدر متساوياً مع حساب الحقل. لا يا أستاذ، لا أبحث عن مغامرة ولا أتلاعب بعواطف، هي هكذا، إما صادقة وعميقة وفي ذروتها وإما لا، لا أعرف التهميش، لا أودعها مدافن نفسي وأدرجها تحت أحرف أبجدية ليسهل البحث عنها عند الاحتياج. ببساطة أنا في أمسّ الحاجة لكل أصحابي ومعارفي في أي وقت وتحت أي ظروف ورهن كل لحظة.

– مشكلتك يا سميرة أنك ..

– عفواً أستاذي.. مشكلتي أعرفها جيداً، ولكني غير مستعدة أن أحلها على حساب ما أعتقد وأومن، مشكلتي أنني لا أستطيع أن أفرق بين صديق وصديقة، لا يخطر في بالي مطلقاً وضع إشارة قف أمام عواطفي حين تندفع نحو إنسان ما مطالبة بإصرار معرفة النوع قبل الإقدام على عقد أواصر الصداقة.

– أعترف بأنك لست كغيرك، وجودك يشعرني بإنسانيتي، يأخذني بعيداً عن النوازع والرغبات، أحبك وأحترمك واحتاجك. أرفض أن تنهار ثقتك بي وبأخلاقي، أرجوك أفسحي لي مجالاً للشرح و..

– البون شاسع بين طريقتك في التفكير وطريقتي. الصداقة احتياج ومعنى، لا يعرف قيمتها من يتلاعب بالقيم، عرفت جيداً أنها أكبر من احتمالك.

– إنك تغامرين بكل ما بيننا بطيش، سوف تحاسبين نفسك ذات يوم قريب ..

– أكثر ما يؤلمني هذه القسوة، لم تعد تحس بوجع الآخرين أو تقدر ظروفهم. كنت أراك وجهاً من وجوه الحياة الجميلة التي نادراً ما نصادفه، ثم تغيرت نظرتي، لعلني خسرتك، لكن بابتعادي أكسب نفسي واحترامي لها، وطريقتي الخاصة في التعبير عنها.

– كنا نتصادم ونتناقش ونختلف، لكنه في كل أحواله كان خلافاً خلاقاً. هل نسيت كيف كنت أشبهك بالبرق وأشبه نفسي الرعد، والإبداع الذي يتوصل له كل منا في مجاله أشبهه بالأمطار التي تهطل بعد البرق والرعد. لا تبتعدي ..

– هذا يكفي لست بصدد تحديد مواقف ومشاعر. أرجوك أن تقرأ روايتي هذه، بطلها بدأ طريقه بسعة أفق وثقافة وعلم، نشر النور في عقول من حوله عمراً ثم خبا. استطاب أن يقتات مشاعر الآخرين، دون أن يهتم بما يحسه هؤلاء من وجع، استعبدته رغبة امتصاص الدماء من الشرايين بتلذذ سادي عجيب.